

التعايش في الإسلام
بين برنارد لويس وتوماس أرنولد دراسة مقارنة لرؤيتيهما زمن النبوة والخلفاء الراشدين

الدكتور/ إبراهيم بن خليل مظهر

الأستاذ المشارك بقسم الاستشراف بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة طيبة

الملخص

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد فهذه الورقة البحثية لا تهدف لبيان التعايش في الإسلام من المنظور الإسلامي (الذاتي)، كما أنها لا تناقش شبهات أو مغالطات عن التعايش في الإسلام، وإنما هي حوار بين رأيين مختلفين لا يمثل أحدهما الذات، فهي إن صح التعبير حوار الغرب مع الغرب نفسه.

وتكمن أهمية هذا النوع من الحوار في بيان مدى الاهتمام العالمي للوصول إلى معرفة حقيقة التعايش في الإسلام، إضافة لما يمثله هذا النوع من الحوار من بيان أن الآخر ليس بالضرورة أن يكون مُغرضاً أو مُعادياً متى ما عرف الوقائع بتجرد وموضوعية، بل ربما يكون أفضل من يعرض الحقائق، ويسوّقها للمعرفة الإنسانية عالمياً بلغة المحايد الذي لا تلاحقه تهمة الغرضية وتلميع الأنا في عرض ما انتهت إليه قناعاته، وقادته إليه البراهين والأدلة.

فهذا البحث هو حوار بين شخصيتين غربيّتين لهما مكانة مرموقة في الأكاديمية الغربية، ومشهود حضورهما الواسع في ميدان الدراسات الشرقية، والإسلامية تحديداً، وهما المستشرق برنارد لويس والمستشرق توماس أرنولد، وسنستعرض في هذا الحوار رؤيتيهما حول التعايش في الإسلام، والمنهجية التي ساقتهما لبناء رؤيته.

الكلمات المفتاحية: التعايش الإسلامي، الحوار، السلام، برنارد لويس، توماس أرنولد.

Abstract

All praise is due to Allah alone, and may peace and blessings be upon the one after whom there is no prophet (Peace and blessings be upon him), and thereafter:

This research paper does not aim to present coexistence in Islam from an Islamic (self) perspective, nor to refute misconceptions or distortions about it. Rather, it is a dialogue between two differing opinions, neither of

which represents the self. In other words, it is—so to speak—a conversation of the West with itself.

The importance of this type of dialogue lies in highlighting the extent of global interest in knowing the reality of coexistence in Islam. It also demonstrates that “the other” is not necessarily malicious or hostile, as long as they learn the facts with objectivity and impartiality. Such a person may, in fact, be the best to present the truth and convey it to global human knowledge in the neutral language of one who is free from accusations of bias or self-promotion, simply presenting what their convictions and the weight of evidence have led them to.

Thus, this study is a dialogue between two prominent Western figures, both of whom hold distinguished positions in Western academia and are well-known for their extensive presence in the field of Oriental and, more specifically, Islamic studies: the Orientalist Bernard Lewis and the Orientalist Thomas Arnold. In this dialogue, we will examine their respective views on coexistence in Islam and the methodology each employed in developing their perspective.

Keywords: Islamic coexistence, dialogue, peace, Bernard Lewis, Thomas Arnold

مقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فإن التعايش بمفهومه العالمي الحديث الذي شاع وذاعت دلالاته مع التقدم الإنساني وظهور مصطلحات حقوق الإنسان ورعاية المنظمات الدولية المُنظَّرة لها، هو في الإسلام مُتجذر بأصول ثابتة تجعله مطلباً شرعياً، فهو ينبثق من التكريم الإلهي للإنسان أياً كان دينه وعرقه، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا

بَنِي آدَمَ﴾ [سورة الإسراء من الآية ٧٠].

كما هو حاجة إنسانية معتبرة، لا يقوم حال مجتمع دون توافرها وازدهارها، وقد عرّفه المسلمون وغيرهم من المنصفين في هدي الإسلام وأحكامه وتشريعه وعلى امتداد تاريخه، يقول تبارك وتعالى تأسيساً له:

﴿ لَا يَنْهَكُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبْرُوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة الممتحنة الآية ٨]، ويقول سبحانه: ﴿ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الزخرف الآية ٨٩]، يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: (تألفهم

واصفح عنهم فعلا وقولا)(١).

وحينما قدم النبي الكريم ﷺ مكة يوم الفتح بعد أن آذاه أهلها من قَبْلُ سنين طويلة، وآذوا أصحابه أشد الإيذاء وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وحاربوهم في مُهاجرتهم بالمدينة، وقتلوا ونكّلوا حتى في أقرب الناس إليه، كعمه حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، كل ذلك لم يدعوهُ للانتقام يوم فتح مكة، ولا لطلب الثأر وعدالة القصاص، وكان حينها قادرا على ذلك -وله القوة والمنعة- لكنه أَمَّنَ أهل مكة المشركين بالله المَكذِبِينَ لرسالته، ولم يُفزعهم ولم يُخرجهم من ديارهم وأموالهم، بل قال لهم: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن)(٢).

فعَلِمَ البشرية معنى التسامح الحق ومحبة الخير للآخر، في صورة لم تعهد الإنسانية مثلها، وسيرته ﷺ حافلة بالرحمة وتقديم الخير للمسلم وغير المسلم، وقد وصفه ربه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء الآية ١٠٧].

وقد استمر صحابته من بعده في تطبيق هذا الهدى النبوي مع كل مخالف ومغاير، متبعين تعاليم الإسلام ومكارم أخلاقه في تحقيق ما فيه الأمن والسلم وسُبُل التعايش بين الأمم والشعوب، لذلك كان التاريخ الإسلامي شاهدا على التعايش الإسلامي وسماحة الإسلام وعدله وإنصافه للمسلم وغير المسلم على حد سواء، وعاش غير المسلمين في ظل الإسلام حقيقة التعايش وحفظ الحقوق.

وَبَعْدُ فهذه الورقة البحثية لا تهدف لبيان التعايش في الإسلام من منظور إسلامي (الذات)، كما أنها لا تناقش شبهات أو مغالطات عن التعايش في الإسلام، وإنما هي حوار بين رأيين مختلفين لا يمثل أحدهما الذات، فهي إن صح التعبير حوار الغرب مع الغرب نفسه.

وتكمن أهمية هذا النوع من الحوار في بيان مدى الاهتمام العالمي للوصول إلى معرفة حقيقة التعايش في الإسلام، إضافة لما يُمثله هذا النوع من الحوار من بيان أن الآخر ليس بالضرورة أن يكون مُعرضا أو مُعاديا متى ما عرف الوقائع بتجرد وموضوعية، بل رُبَّمَا يكون أفضل من يُعرض الحقائق، ويُسوّقها

١ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٣٧/٤) مطبعة الاستقامة بالقاهرة عام ١٣٧٣هـ، الطبعة الثالثة.

٢ - رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب (٣١) فتح مكة، حديث ١٧٨٠، ص ٧٦٠، دار الكتاب العربي ببيروت ٢٠٠٤م الطبعة الأولى.

ورواه أبو داود، كتاب الخراج والإمارة، باب (٢٥) ما جاء في خبر مكة، حديث ٣٠٢١، ص ٣٨٧، دار الكتب العلمية ببيروت عام ٢٠٠١م، الطبعة الأولى.

للمعرفة الإنسانية عالميا بلغة المحايد الذي لا تلاحقه تهمة الغرضية وتلميع الأنا في عرض ما انتهت إليه قناعاته، وقادته إليه البراهين والأدلة.

فهذا البحث هو حوار بين شخصيتين غريبتين لهما مكانة مرموقة في الأكاديمية الغربية، ومشهود حضورهما الواسع في ميدان الدراسات الشرقية، والإسلامية تحديدا، وهما المستشرق برنارد لويس والمستشرق توماس أرنولد، وسنستعرض في هذا الحوار رؤيتهما حول التعايش في الإسلام، والمنهجية التي ساقتهما منها لبناء رؤيته.

الدراسات السابقة

تَنَاقَلَت العديد من الدراسات السابقة كُلا من هتين الشخصيتين بالدراسة والبحث بشكل مفرد مستقل عن الآخر، ولم أجد من تناول الشخصيتين في دراسة مقارنة سواء في موضوع هذا البحث (التعايش في الإسلام) أو في مواضيع أخرى، أما أهم الدراسات السابقة فهي كما يلي:

أولا: الدراسات المتعلقة بالمستشرق برنارد لويس

- ١- ايدولوجية الحرب الباردة وتاريخ الشرق الأوسط: عرض نقدي لمقالة الاستاذ برنارد لويس " الشيوعية والإسلام"، كاتلين غلافانيس، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية الصادرة عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، عام ١٤٠٣هـ، العدد (١١).
- ٢- منهج المستشرق برنارد لويس في دراسة الجوانب الفكرية في التاريخ الإسلامي، د.مازن مطبقاني، رسالة دكتوراة بقسم الاستشراق بجامعة الإمام سابقا، عام ١٤١٤هـ.
- ٣- أزمة الاستشراق المعاصر دراسة في فكر برنارد لويس، أحمد عرفات القاضي، صدر عن المؤتمر السنوي الخامس للبحوث بجامعة الإمارات العربية المتحدة، عام ٢٠٠٤م، المجلد (٢).
- ٤- المستشرق برنارد لويس ومنهجه في دراسة التاريخ الإسلامي، د.صبيحي عبدالمنعم محمد، مجلة كلية دار العلوم بجامعة القاهرة بالفيوم، العدد (١٣) عام ٢٠٠٥م.
- ٥- ملاحظات نقدية حول كتابات برنارد لويس في تاريخ العرب الوسيط، عبدالرحمن أحمد سالم، مجلة فكر وإبداع، الصادرة عن رابطة الأدب الحديث بمصر، عام ٢٠٠٦م، العدد (٣٧).
- ٦- برنارد لويس واكتشاف الإسلام لأوروبا: بعض مؤشرات خطاب أبلسة الآخر، خلدون الشمعة، مقال بمجلة الفكر العربي المعاصر بلبنان، عام ٢٠٠٩م، العدد (١٤٨).
- ٧- دراسات المستشرق برنارد لويس حول مستقبل الإسلام كتاب "أين الخطأ" أنموذجا (دراسة وصفية تحليلية)، للباحث أحمد الزهراني، بحث تخرج ماجستير بقسم الاستشراق بجامعة طيبة عام ١٤٤٣هـ.
- ٨- المدرسة الاستشراقية البريطانية المعاصرة وآراؤها حول التاريخ الإسلامي الوسيط: المستشرق برنارد لويس والسيرة النبوية أنموذجا، محمد عيساوي، مجلة دراسات تاريخية، الصادرة عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية بالجزائر، عام ١٤٤٤هـ، العدد (٢).

ثانيا: الدراسات المتعلقة بالمستشرق توماس أرنولد

- ٩- دراسة نقدية لكتاب توماس أرنولد: أثر العهدين القديم والجديد في الفن الإسلامي الديني، د.حسن محمد نور، نشرته مجلة كلية الآداب بجامعة أسيوط العدد (٣) لعام ١٩٩٤م.
- ١٠- مراجعة كتاب الدعوة إلى الإسلام للمستشرق البريطاني سير توماس أرنولد، د.عماد الدين خليل، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، عدد ٤٦-٤٧، عام ٢٠٠٧م.
- ١١- الدعوة إلى الإسلام للمستشرق توماس ولكر أرنولد (دراسة تاريخية حضارية) قراءة نقدية، حمود بن محمد النجدي، مجلة عالم الكتب عام ٢٠٠٧م، العدد ٥-٦.
- ١٢- المستشرق توماس أرنولد والتحول في الدراسات الاستشراقية كتاب "الدعوة إلى الإسلام"، د.ناصر جاسم من جامعة الموصل، مجلة آداب الفراهيدي عام ٢٠١٤م، العدد (١٧).
- ١٣- مقدمة لكتاب توماس أرنولد "الدعوة إلى الإسلام"، د.صابرينا لي، Introduction to Thomas Arnold's Preaching of Islam, Dr. Sabrina Lei نشرته بالإنجليزية بمركز تواصل بإيطاليا بإصدار مستقل في ٤٣ صفحة، دون الإشارة لتاريخ نشر.
- ١٤- انتشار الإسلام في الرؤى الاستشراقية: توماس أرنولد أنموذجاً، أحمد الزعبي، مجلة التفاهم بسلطنة عمان عام ٢٠١٥، العدد (٥٠).
- ١٥- أثر التسامح الديني في انتشار الإسلام ضمن مناطق النفوذ المسيحي في كتاب المستشرق البريطاني توماس أرنولد "الدعوة إلى الإسلام"، زاهده محمد المزوري، مجلة جامعة شقراء، عام ٢٠١٧م، العدد (٨).
- ١٦- رؤية المستشرق توماس أرنولد للفن الإسلامي: المنمنمات أنموذجاً، تهاني عوض الجابري، بحث تخرج ماجستير بقسم الاستشراق بجامعة طيبة عام ١٤٤٣هـ.
- فكل هذه الدراسات تناولت أحد هتين الشخصيتين بشكل مفرد، وكل دراسة لها موضوعها وجانبها المعرفي التي بحثت فيه، وتأتي هذه الدراسة لتقارن بين رؤية كل من برنارد لويس وتوماس أرنولد لموضوع التعايش في الإسلام، والمنهجية التي ساقته كلا منهما لرؤيته.

منهج وحدود البحث:

تعتمد طبيعة هذا البحث على منهجية البحث الوصفي للدراسات المقارنة، بتوصيف رؤية كل واحد من المستشرقين محل الدراسة بشكل مفرد من خلال تحليل مناهجه البحثية واستدلالاته وأفكاره، مما يوضح أوجه الاختلاف والتشابه بينه وبين الآخر، ويسلط الضوء على البناء الفكري الشامل لرؤية كل منهما.

وحيث أن توصيف وعرض بعض الآراء الاستشراقية المرتبطة بمسائل جوهرية في قضية بقيمة وأهمية التعايش مع الآخر في الإسلام تتطلب مناقشتها وتقويمها حتى لا تُشكل لدى عموم القراء، وحتى لا يكون في عرضها إثارة وتشويش من غير توضيح وبيان، فإني قد ألجأ في بعض المواطن اضطراراً إلى الجمع بين الدراسة المقارنة والدراسة النقدية -محاولاً عدم الإسهاب في النقد قدر المستطاع- لتوضيح ما قد يُشكل فهمه، وبيان ما تم توظيفه خارجاً عن سياقه وإطاره.

وسيكون إطار حدود الدراسة مؤلفات هتين الشخصيتين الاستشراقيتين مما تناولا فيه قضية التعايش مع الآخر في الإسلام زمن النبوة والخلفاء الراشدين، لما تمثله تلك الفترة الزمنية من أهمية تشريعية لدى المسلمين، ولما تمثله من قُدوة تُمثل الإسلام في أزهى عصوره.

انتظم هذا البحث في مقدمة وثلاثة مباحث اشتمل كل منها مطلبين على النحو التالي:

مقدمة

الدراسات السابقة

المبحث الأول: التعايش في الإسلام ومنهجية كل منهما في تصويره

المطلب الأول: توماس أرنولد ومنهجيته في تصور التعايش في الإسلام (١٨٦٤-١٩٣٠)

المطلب الثاني: برنارد لويس ومنهجيته في تصور التعايش في الإسلام (١٩١٦-٢٠١٨)

المبحث الثاني: رؤية كل منهما لدوافع انتشار الإسلام

المطلب الأول: رؤية لويس لدوافع انتشار الإسلام

المطلب الثاني: رؤية أرنولد لدوافع انتشار الإسلام

المبحث الثالث: رؤية كل منهما لأحوال غير المسلمين في ظل التعايش الإسلامي

المطلب الأول: رؤية لويس لأحوال غير المسلمين في ظل التعايش الإسلامي

المطلب الثاني: رؤية أرنولد لأحوال غير المسلمين في ظل التعايش الإسلامي

الخاتمة

المبحث الأول: التعايش في الإسلام ومنهجية كل منهما في تصويره

التعايش في اللغة مصدره العيش وهو الحياة، والمعيشة التي نعيش بها من المطعم والمشرب وما تكون به الحياة وما يُعاش به أو فيه، وجمعه معاش (١)، قال ابن منظور: (وعايشه عاش معه كقوله عاشره) (٢)، ويقول الزمخشري: (الأرض معاش الخلق، وأعاشه الله في سعة وإنهم لعائشون إذا كانت حالتهم حسنة وتعايشوا بألفة ومودة) (٣).

١ - الفيروز آبادي، القاموس المحيط (٢٧٨/٢) المطبعة الميرية بمصر ١٣٠١هـ، الطبعة الثالثة، بتصرف يسير.

٢ - ابن منظور، لسان العرب (٢١١/٨) المطبعة الميرية بمصر ١٣٠١هـ، الطبعة الأولى.

٣ - الزمخشري، أساس البلاغة (١٠١/٢) المطبعة الوهبية بمصر ١٢٩٩هـ، الطبعة الأولى.

أما من حيث معناه الاصطلاحي فالمراد به: (أن تلقى إرادة أهل الديانات السماوية والحضارات المختلفة في العمل من أجل أن يسود الأمن والسلام العالم، وحتى تعيش الإنسانية في جو من الإخاء والتعاون على ما فيه الخير الذي يعم بني البشر جميعا من دون استثناء) (١).

والتعايش بما يتضمنه من معاني السلم والتسامح وقيم الإحسان ومحاسن الخلق في التعامل مع الآخر ينطلق في الإسلام من مبدأ التكريم الإلهي للإنسان، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [سورة الإسراء من الآية ٧٠]، فالله عز وجل كرم الإنسان ورفع من شأنه على سائر خلقه، ومن أجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، حيث ميز الإنسان بالعقل، وحمله الأمانة والمسؤولية، وشرفه بالنفخ فيه من روحه، وعصم دمه وأعلى منزلته وأعلن رفيع مقامه أمام الملائكة في الملأ الأعلى، فقال تعالى: ﴿

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [سورة البقرة من الآية ٣٠]، كما أكد عظيم مكانة الإنسان وعلو مقامه بقوله جل شأنه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۖ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة الآية ٣٤] وكرر الإخبار بهذا التكريم في كتابه العزيز في مواضع عديدة حتى يعلم الإنسان قيمته وقيمة الإنسانية عند الخالق جل جلاله.

وتتعدد صور التكريم الإلهي للإنسان في الإسلام وتُعلي من قيمته وشأنه، فيخبر الحكيم الخبير بأنه سخر مخلوقاته للإنسان، ودللها وطوعها لخدمته ونفعه، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [سورة لقمان من الآية ٢٠]، كما يخبر سبحانه بألوان متعددة من التسخير والإنعام، فيقول جل شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَمَا

١ - د. عبدالعزيز التويجري، الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين، ص ٩، المنظمة الإسلامية للثقافة والعلوم - إيسيسكو، ١٤١٩ هـ.

ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾
[سورة النحل الآيات ١٠-١٣].

وعندما نزل الوحي على النبي الكريم ﷺ جاءت آيات الذكر الحكيم تؤكد توالي عناية العزيز الحكيم للإنسان بمبعثه ﷺ، فقال جل من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة الأنبياء الآية ١٠٧]، فهي رسالة رحمة نعم العالمين ولا تقتصر على المؤمنين به.

وجاءت هذه الرسالة متجانسة ومتوائمة مع سنن الله في الكون في التنوع والاختلاف حتى في قضية الإيمان، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ إِلَّا مَنْ إِيمَانًا، وَلَئِنْ شَاءَ رَبُّكَ لَفَعَلْنَا لَمِيزًا ﴿١١٩﴾﴾ [سورة هود الآيات ١١٨-١١٩]، ويقول جل وعلا: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [سورة المائدة من الآية ٤٨]، بل يؤكد القرآن الكريم أن الاختلاف آية من آيات الله في الخلق: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الروم الآية ٢٢].

فلم تقص رسالة الإسلام الآخر ولم تلغ حقه الوجودي وحقوقه الإنسانية، إلا أنها ربطت الإيمان بالمصير ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾ [سورة الكهف من الآية ٢٩]، ويؤكد القرآن الكريم هذا المبدأ في مواضع متعددة فيقول سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَعَهُ يَوْمَ الْفَتْخِ﴾ [سورة البقرة من الآية ٢٥٦].

ولأنها رسالة رحمة وهداية تدعو الخلق للنجاة والبعد عن أسباب التهلكة، فقد جاءت مؤكدة على هداية الخلق والأخذ بهم إلى سبل الخير والسعادة، ودعوتهم إلى الإيمان بالخالق وعبوديته وتجنب ما يسخطه، ولم تترك مسار الدعوة إلى الهداية وفق الأهواء، وإنما رسمت معالمه، وحددت ضوابطه بما لا يسيء للمخالفين أو يمتن كرامتهم أو يتعدى على حقوقهم، فقال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ

وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿ [سورة النحل من الآية ١٢٥] ، وأكدت الرسالة إطار مهمة الداعي بكل وضوح ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [سورة الرعد من الآية ٧].

وفي حالة الرفض وعدم الاتباع فإن رسالة الإسلام أبقت لمن يرفض حقوقه واحترامه وإنسانيته لا يُنتهك منها شيء، يقول تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران الآية ٦٤] ، فلم تتحدث الآية الكريمة عن قتال من تولى

وأعرض، ولم تطالب بقمع أو أي انتهاك، والخطاب في الآية يعم أهل الكتاب ومن جرى مجراهم (١)، ودائما ما يتكرر هذا الموقف القرآني مع كل مخالف ومعاند، فنجد ذات الموقف ثابتا راسخا لا يتزحزح، ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ [سورة النحل من الآية ٨٢] ، ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ

أَهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ ﴾ [سورة آل عمران من الآية ٢٠] و(إنما) تفيد الحصر، أي ليس عليك أي شيء آخر بعد البلاغ، وهذا ما يشير إلى القيمة العليا للتعايش في الإسلام، الذي حفظ للمخالف والمعاند كرامته وحقوقه الإنسانية، ولم يُكرهه على معتقد أو عمل يخالف معتقده ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي

الدِّينِ ﴾ [سورة البقرة من الآية ٢٥٦] ، فهو أصل ثابت لا يتبدل، قررته رسالة الإسلام، وهو نهج التزامه جميع الأنبياء، يقول تبارك وتعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كِرِهُونَ ﴾ [سورة هود الآية ٢٨] (٢).

١ - انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧١/١) "مرجع سابق".

٢ - انظر: د. عباس الجراري، مفهوم التعايش في الإسلام، ص ١٦ ، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم - إيسيسكو- ١٤١٧هـ.

وانظر: د. خالد عبد الحميد محمود، التعايش بين الأديان من منظور القرآن دراسة تأصيلية، ص ١٥٩ ، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ العدد الأول - المجلد السادس لعام ٢٠١٧م.

وحتى يؤكد الإسلام على مكانة التعايش في تشريعه ونظامه جاءت آيات القرآن الكريم تؤكد أن لا سلاح يُرفع في وجه مخالف إلا أن يقع منه ظلم أو اعتداء، يقول تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ

ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [سورة الحج من الآية ٣٩]، فالإذن في الآية الكريمة بمعنى الإباحة (١)، أي أنه في غير علة رفع الظلم يبقى القتال محرماً، فتحریم القتال هو الأصل وإنما اقتضت الإباحة على علة رفع الظلم، يقول تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُم فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَٰمَ فَمَا

جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء من الآية ٩٠]، وفي سبيل تأكيد رسالة الإسلام على الأخذ بأسباب التعايش بين المسلمين وغيرهم فقد حذرت من أي انتهاك للآخر، أو سلبه حقا من حقوقه، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة من الآية ١٩٠]، ويقول النبي الكريم ﷺ: (من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً) (٢)، وفي حديث آخر: (ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة) (٣).

وفي سبيل حفظ التعايش وتأكيد مكانته في الإسلام لم تقتصر رسالة الإسلام على تحريم الاعتداء على الآخر فقط، بل وجهت لما فيه بذل أسباب البر والإحسان للآخر، يقول سبحانه: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ

الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة العنكبوت من الآية ٤٦]، كما يقول تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ

يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الممتحنة الآية ٨]، قال الإمام القرافي رحمه الله في بيان وجوه برهم بعد

أن ذكر هذه الآية: (كالرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال أدبهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفاً منا بهم لا خوفاً وتعظيماً، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم

١ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٨/١٢) مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦١هـ، الطبعة الأولى.

٢ - رواه البخاري كتاب الديات باب (٣٠) إثم من قتل ذمياً، حديث ٦٩١٤، ص ١٤٥٩، دار الأرقم ببغداد، دون الإشارة لتاريخ طبع.

٣ - رواه أبو داود، كتاب الخراج باب (٣٣) في تعشير أهل الذمة، حديث ٣٠٥٢، ص ٤٩٢ "مرجع سابق"، قال السخاوي: (سنده لا بأس به) السخاوي، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، ص ٣٩١، دار الكتب العلمية ببغداد ١٤٠٧هـ، الطبعة الأولى.

وانظر في تفصيل حماية الإسلام للنفس الإنسانية: د. علي عبد الواحد وافي، حماية الإسلام للأنفس، ص ٢٨، عكاظ للنشر والتوزيع بجدة، عام ١٤٠٣هـ، الطبعة الأولى.

في جميع أمورهم، في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم(١).

كما أكدت آيات القرآن الكريم تقدير من له الفضل من غير المسلمين ومعاملته بالمعروف والحسنى، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [سورة لقمان من الآية ١٥] فإن كان الوالدان على غير دين الإسلام فإن ذلك لا يسقط حقوقهما من البر وبذل المعروف لهما.

وقد كان النبي ﷺ أنموذجاً حياً للتعايش مع الآخر واحترام حقوقه وإنسانيته، فقد وادع اليهود وغيرهم عندما قدم المدينة وأسس مجتمع المسلمين الأول، وكتب وثيقة تضمنت ما لليهود من حقوق وواجبات وعهد وميثاق، حتى عُرف ذلك في التاريخ الإسلامي بوثيقة المدينة (٢)، وقد أوردت كتب الحديث بعض ما تضمنته الوثيقة كحديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: (أعطى النبي ﷺ خيبر اليهود أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها) (٣)، كما عاهد نصارى نجران (٤).

وقد ورد عنه ﷺ أنه كان له خادم يهودي وكان يحسن معاملته، وعندما مرض هذا الخادم زاره النبي ﷺ ويعوده في مرضه، كما في حديث أنس رضي الله عنه، قال: (كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فاتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: "أسلم" فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: "الحمد لله الذي أنقذه من النار") (٥)، كما صاهر ﷺ غير المسلمين وتزوج منهم كزواجه من أم المؤمنين السيدة صفية بنت حيي بعد أن أسلمت وكان قومها يهودا (٦)، كما قبل من النجاشي هديته مارية القبطية جارية له وهي أم ولده إبراهيم وقد أسلمت وكانت من قوم نصارى (٧).

وقد عاش النبي ﷺ وكذلك سائر أصحابه رضوان الله عليهم مع غير المسلمين في أمن وسلم يتتبعون منهم، ويبيعونهم، ويتعاملون معهم في كل ما أباحه الإسلام من المعاملات، وقد رهن ﷺ درعه لدى

١ - القرافي، الفروق، الفرق ١٩ (٢٩/٣) دار الكتب العلمية ١٤١٨ هـ الطبعة الأولى.

٢ - يقول د.أكرم ضياء العمري: (الحكم بوضع الوثيقة مجازفة، ولكن الوثيقة لا ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة..، ولكن نصوصاً من الوثيقة وردت في كتب الأحاديث بأسانيد متصلة، وبعضها أوردها البخاري ومسلم) د.أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢٧٥/١) مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة ١٤١٥ هـ، الطبعة السادسة.

٣ - رواه البخاري كتاب المغازي، باب (٤٠) معاملة النبي ﷺ أهل خيبر، حديث ٤٢٤٨، ص ٨٨٦ "مرجع سابق".
ورواه مسلم كتاب المساقاة، باب (١) المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر، حديث ١٥٥١، ص ٦٤٥، دار الكتاب العربي بيروت عام ١٤٢٥ هـ، الطبعة الأولى.

٤ - انظر حديث حذيفة رضي الله عنه الذي رواه البخاري بكتاب المغازي، باب (٧٢) قصة أهل نجران، حديث (٤٣٨٠)، ص ٩١١ "مرجع سابق".

٥ - رواه البخاري كتاب الجنائز، باب (٧٩) إذا أسلم الصبي فمات، حديث ١٣٥٦، ص ٢٨٤ "مرجع سابق".

٦ - كما في حديث البخاري كتاب المغازي باب (٣٩) غزوة خيبر، حديث ٤٢٠٠، ٤٢٠١ "مرجع سابق".

٧ - ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة (١٢٥/٩) مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٧ هـ، الطبعة الأولى.

يهودي عندما اشترى منه، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ اشترى طعاما من يهودي إلى أجل، ورهنه درعا من حديد) (١).

وبعدما لحق ﷺ بالرفيق الأعلى سار خلفاؤه من بعده على هديه ومنهاجه في التعامل مع غير المسلمين، فعندما اتسعت رقعة الإسلام، ودخلت العديد من الدول تحت سلطان الإسلام في الشام والعراق ومصر والشمال الأفريقي وبلاد فارس وما وراءها وغيرها من البلدان لم يُكرَه أهالي تلك البلاد على دخول الإسلام، فمنهم من دخل بإرادته في الإسلام ومنهم من بقي على دينه، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، لا يُنتهك له حق، ولا يُنتقص من قدره، بل مارسوا شعائرهم تحت حماية المسلمين، وهذا خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوصي عند موته من يليه بالخلافة بأهل الذمة، فيقول: (أوصي الخليفة من بعدي.. أوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ، أن يُوفى لهم بعهدهم، وأن يُقاتل من ورائهم، وأن لا يُكلفوا فوق طاقتهم) (٢).

كما رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه: (مر بباب قوم وعليه سائل يسأل، شيخ كبير ضرير البصر، ف ضرب عَضُدَه من خلفه، وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال يهودي، قال: فما أجبك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله، فرضخ له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [سورة التوبة، من الآية ٦٠]، والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه) (٣).

ومما جاء في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهل بيت المقدس بعد الفتح: (هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء (٤) من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم.. أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها...) (٥)، فعاش غير المسلمين في عهد نبي الإسلام ﷺ وفي عهد خلفائه من بعده آمنين على أنفسهم وأموالهم ومعتقداتهم وسائر حقوقهم، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

١ - رواه البخاري كتاب البيوع، باب (١٤) شراء النبي ﷺ بالنسيئة، حديث ٢٠٦٨، ص ٤٣٠ "مرجع سابق".
ورواه النسائي كتاب البيوع باب (٥٨) الرجل يشتري الطعام إلى أجل) حديث ٤٦٠٩ (٢٨٨/٧) دار البشائر الإسلامية ببيروت عام ١٤٠٩ هـ، الطبعة الثالثة.

٢ - رواه البخاري، كتاب الزكاة باب (٩٦) ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، حديث ١٣٩١ ص ٢٩٢ "مرجع سابق".

٣ - الخراج، للقاضي أبي يوسف ص ١٢٦ دار المعرفة ببيروت ١٣٩٩ هـ.

٤ - إيلياء هي مدينة بيت المقدس، وقال محمد بن سهل الكاتب: معنى إيلياء: بيت الله، البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (٢١٧/١) مطبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة ١٣٦٤ هـ، الطبعة الأولى.

٥ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك (١٥٩/٤) المطبعة الحسينية بمصر، الطبعة الأولى.

وقد ذكره ابن القيم مطولا وبروايات متعددة، وقال: (وشهرة هذه الشروط تُغني عن إسنادها فإن الأئمة تلقوها بالقبول، وذكروها في كتبهم واحتجوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على السنتهم وفي كتبهم، وقد أنفذها بعض الخلفاء وعملوا بموجبها) ابن القيم، أحكام أهل الذمة، ص ١١٦٤، رمادي للنشر بالدمام ١٤١٨ هـ، الطبعة الأولى.

المطلب الأول: برنارد لويس ومنهجيته في تصور التعايش في الإسلام (١٩١٦-٢٠١٨)

ولد برنارد لويس Bernard Lewis عام ١٩١٦م في لندن لوالدين بسيطين، وكان والده يعمل في صناعة المنسوجات، إلا أنه تركها وعمل في العقارات، وكانت أولى المدارس التي التحق بها برنارد لويس مدرسة صغيرة في كينسينغتون، وتنقل بعدها بين عدة مدارس كان أهمها مدرسة "بوليتكنيك لندن النهارية" عندما كان في سن الرابعة عشرة، كما يذكر في ترجمته لنفسه بأن شغف القراءة ومتعتها امتزج بحياته منذ كان طفلاً صغيراً، وكان والده يساعده في اقتناء الكتب، وقد اشترى له المجموعة الكاملة للموسوعة البريطانية التي ابتداءً قراءتها بنهم وشغف في سن الثانية عشر.

وعندما بلغ الثالثة عشر من عمره ابتداءً دراسة العبرية على أستاذه "ليون شالوم كريديتور"، وأخذ عنه الكثير لسنوات، مما مكّنه من التعرف بشكل موسع على العهد القديم والدراسات المتعلقة به، وأوجد له شغفاً بالتوسع في اللغات الكلاسيكية القديمة، كاللغتين اليونانية واللاتينية، إضافة للغات الحية، الأمر الذي أعدّه إعداداً جيداً لممارسة الترجمة، وخلق له طموحاً بأن يكون كاتباً، فكتب بالإنجليزية والعبرية شعراً ومقالات وبعض القصص، وبعد أن تعلم العربية والفارسية ترجم العديد من القصائد من تلك اللغات، إضافة لاهتمام كبير بالتاريخ، والتاريخ الإنجليزي تحديداً.

وفي عام ١٩٣٣م التحق بجامعة لندن وبها درس التاريخ الأوروبي بشكل عام، مع تخصص دقيق في تاريخ الشرق الأوسط، وقد منحه هذا المسار الجمع بين اهتمامات عديدة تعلمها في نشأته، وبجامعة لندن التقى بالعديد من الأساتذة الذين كان لهم دور في تشكيل نظريته للمسألة الشرقية، من أمثال "هاملتون جب"، و"نورمان بينز"، و"ر. دبليو. سيتون واتسون"، وعن الأخيرين فهم منهج البحث التاريخي كما يقول عن نفسه (١).

وبعد تخرج لويس من جامعة لندن عام ١٩٣٦م، انتقل إلى باريس لاستكمال دراساته العليا وبتوصية من أستاذه (جب) التقى بـ"لويس ماسينيون" في جامعة باريس، ودرس لديه لعام كامل، كما التقى بأخريين أمثال "مارسيل موس"، و"عدنان بك" تركي الجنسية، وآخرين.

وأثناء دراسة لويس عاد إلى لندن، والتقى بـ"جب" مجدداً وأشار إليه بالبدء بزيارة الشرق والتعرف عليه، فكانت أولى رحلاته للشرق إلى مصر عام ١٩٣٧م، وأمضى بها ثلاثة أشهر فتلقى دروساً في اللغة العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، كما سجل كـ"مستمع" في الجامعة المصرية، وحضر بها العديد من المحاضرات، ثم ارتحل إلى فلسطين، وكانت وقتها تحت الانتداب البريطاني، ومكث بها أسبوعين، ثم زار سوريا ومنها إلى الأراضي التركية.

١ - برنارد لويس بالاشتراك مع بنزي إليس تشيرشل، هوامش على قرن مضى، ترجمة عبدالله الأسمرى، ص ٣٨، دار العرافين ببغداد ٢٠٢٣، الطبعة الأولى.

وانظر سيرته بقلم كارول هيلينبراند CAROLE HILLENBRAND على موقع الأكاديمية البريطانية الإلكتروني:
<https://www.thebritishacademy.ac.uk/publishing/memoirs/19/lewis-bernard-1916-2018>

وبعد أن عاد إلى لندن وكرس نفسه للانتهااء من أطروحته العلمية، التحق عام ١٩٣٨م بالعمل محاضرا مساعدا في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن، متخصصا في تاريخ الشرق الأدنى والأوسط، ومن حينها عمّق دراساته حول الشرق، وأخذ في تتبع كل ما يتعلق بدراسة الشرق، وحضر العديد من اللقاءات العلمية والمؤتمرات، ومنها مؤتمر موسكو الخامس والعشرين حول الاستشراق عام ١٩٦٠م، وعاود زيارته للبلدان الشرقية كالجزائر وتركيا وغيرها من بلاد الشرق.

وفي عام ١٩٧٤م حصل تغير كبير في حياته، حيث ترك وظيفته وترك بلاده وانتقل هذه المرة لأقصى الغرب، فرحل إلى برينستون في ولاية نيوجيرسي بالولايات المتحدة، والتحق بالتدريس بجامعة برينستون التي وجد فيها متعة التدريس -على حد تعبيره- لوجود طلاب على مستوى عالٍ من التأهيل، وحتى بإقامته في أمريكا لم تنقطع زيارته المتكررة للشرق (١).

يعد برنارد لويس من المكثرين في انتاجهم العلمي فقد ترك الكثير من المؤلفات والأبحاث، ومن أهمها: أزمة الإسلام، الإسلام في التاريخ، الإيمان والقوة، العرب في التاريخ، الهويات المتعددة للشرق الأوسط، اليهود في ظل الإسلام، أين الخطأ، الإسلام والغرب، هوامش على قرن مضى، وغيرها، إلا أن الكثير من هذه المؤلفات وخاصة الحديث منها ما هو إلا إعادة صياغة وتحديث لما دونه في مؤلفات سابقة، وعلى حد وصف الأستاذ رؤوف عوني (ليس في بعض جديد مؤلفاته إلا العنوان وأن هذه المهارة التي يتقنها لويس لو قام بها غيره لما غفرت له)، لذلك يصف هذه المؤلفات بالجديد القديم (٢).

منهجيته في تصور التعايش في الإسلام

يمكننا أن نحدد منهجية لويس في صياغة منظوره عن التعايش في الإسلام من خلال ما يلي:

١ - في تعامله مع التاريخ الإسلامي -وهو الأرشيف أو السجل الوثائقي للتعايش الإسلامي مع الآخر- نجد أن لديه تباينا وتعارضا في موقفه وما يُصرح به تجاه التاريخ الإسلامي ومناهجه من طرف، وطريقة تعامله الفعلي معه من طرف آخر.

فنراه يصرح نظريا بمدى قوة ودقة التاريخ الإسلامي الذي أقامه علماء المسلمين على قواعد علم الحديث المتمثلة في دراسة سند الرواية، وعلم الجرح والتعديل، يقول لويس: (أدرك العلماء المسلمون منذ التاريخ المبكر خطر الشهادات الزائفة، ولهذا أسسوا وطوروا علما مفصلا ومعقدا ومحكما لنقد العادات، وهو علم "الحديث" أو علم "السنن النبوية" كما كان يطلق عليها، والذي يختلف في جوانب عديدة عن نظرية "نقد النص التاريخي" الحديثة..

الحقيقة أن التدقيق المتأنى لتسلسل عملية نقل الرواة في الأحاديث أعطى كُتّاب السيرة الذاتية العرب (٣) في العصر الوسيط قيمة الاحترام، وأضفى عليها نسقا معقدا لم يكن له سابقة في التاريخ، ودون أن يكون له علم مواز في الغرب المعاصر للعصر الوسيط في الإسلام إبان العصور الوسطى.

١ - انظر ترجمة برنارد لويس لنفسه في كتابه: هوامش على قرن مضى "مرجع سابق".

٢ - انظر تقديمه ودراسته لكتاب برنارد لويس: أين الخطأ، ص ١٠، دار سطور بالقاهرة ٢٠٠٣م، الطبعة الأولى.

٣ - يقصد بذلك كُتّاب التراجم، وتراجم الجرح والتعديل.

بالمقارنة فإننا نجد التاريخ الرسمي اللاتيني للمسيحية يبدو فقيرا هزيلا، حتى التاريخ اليوناني للعالم المسيحي ظل متأخرا عن الأدبيات التاريخية للإسلام في الكم والتنوع وعمق التحليل.

لذلك كانت للمعرفة الدقيقة بالتاريخ أهمية قصوى حيث إنها كانت توفر للمسلمين مرشدا ودليلا ذا سلطة في أعقد المشكلات وأشدها تأزما (١).

كما يؤكد لويس نظريا أيضا على أن الدراسات الأوروبية القديمة للإسلام هي دراسات غرضية تخدم أهداف الكنيسة الغربية، ولا تهدف للمعرفة الحقيقية للإسلام، فيقول: (وكانت دراسة الإسلام في أوروبا العصور الوسطى في جوهرها دراسة دينية أو لاهوتية، وكانت تقوم في الأساس في الأديرة بهدف رئيسي هو حماية المسيحيين من التحول إلى الإسلام، وهو خطر حقيقي في ذلك الزمان، ثم لإرسال بعثات مسيحية "تبشيرية" مضادة، لتحويل المسلمين إلى المسيحية) (٢).

فهذا موقفه النظري المعلن عن التاريخ الإسلامي، والذي يصفه بالدقة وعمق التحليل وأنه ليس له نظير في الغرب، وأن التاريخ الغربي للإسلام في مقابله هو تاريخ لاهوتي يهدف إلى حماية المسيحيين من التحول للإسلام، ولخدمة التبشير وقضاياه، لكن الواقع العملي الذي اعتمد عليه لويس في التعامل مع القضايا التاريخية لا يعكس حقيقة ما صرح به حول التاريخ الإسلامي، إذ لا يجد القارئ لمؤلفاته حضورا للمصادر التاريخية الإسلامية لتوضح حقيقة التعايش في الإسلام مع الآخر، والتي تُعد أبرز وأهم القضايا التي تدور حولها مؤلفاته، والتي لها الأولوية في قضايا تاريخ علاقة الشرق مع الغرب.

٢- لا يعتد بمناهج التوثيق العلمية، ولا يتورع عن نقل الأخبار التاريخية التي يزيد عمرها عن أربعة عشر قرن من الزمان دون إشارة لمصدر تاريخي، وكل من يطالع كتبه يجدها في الغالب خالية من إحالة الحوادث والأخبار التاريخية إلى أي مصدر تاريخي، بل إنه يصرح بذلك ويستحسنه في بداية تصديره لكتابه "العرب في التاريخ"، يقول: (وليس من الميسور، بل ليس من المستحسن في أمثال هذه المباحث أن نشير إلى مصدر كل واقعة نمر بها أو كل رأي نعتمده، وعلماء المشرقيات سيدركون لأول وهلة كم أنا مدين لأساطين الدراسات التاريخية الإسلامية، الأحياء منهم والأموات، وفيما بقي لا يسعني إلا أن أعبر عن عظيم ديني لمن سبقني إلى تدريس التاريخ الشرقي في جامعة لندن ولأساتذتي وزملائي وطلابي الذين ساعدوا جميعا على تكوين نظرتي إلى التاريخ العربي) (٣).

فهنا نراه يُصَرِّح بالجمع بين سوءتين، الأولى: وهي أخذه التاريخي عن طريق أساتذته الأوروبيين عن سبقهم من الأساتذة الذين سبق وصُفُّ لهم باللاهوتيين الذين لا يهدفون إلا لخدمة التبشير وحماية المسيحية، وليس لديهم الدقة وعمق التحليل كما لدى المسلمين -على حد تعبيره-، والأخرى: أنه لا يوثق منقولاته

١ - برنارد لويس، الإسلام في التاريخ، ترجمة مدحت طه، ص ١٩٣، دار آفاق بالقاهرة ٢٠١٨م، الطبعة الأولى.

٢ - المرجع نفسه، ص ١٩٥.

٣ - برنارد لويس، العرب في التاريخ، تعريب نبيه فارس ومحمود زايد، ص ٥، دار العلم للملايين ببيروت ١٩٥٤م، الطبعة الأولى.

عنهم وهو ما يتعارض والمنهج العلمي في التوثيق لأبسط القضايا فكيف في مسألة التعايش الإسلامي مع الآخر.

٣- يعمد إلى استخدام أساليب التشكيك والتضليل في حديثه عن التعايش في الإسلام، يقول لويس

على سبيل المثال: (ثمة آية أخرى تقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة من الآية ٢٥٦]،

وجاء أحد الباحثين الألمان المعاصرين وأولها كتعبير عن الإذعان أكثر من كونها تعبيراً عن التسامح، في حين اعتمدتها التقاليد الإسلامية دوماً للتدليل على التسامح وتحريم استخدام القوة) (١)، فنقله لهذا الرأي المخالف لمفهوم المسلمين كما ذكر لا يمكن تصور هدفه إلا التشكيك والتضليل، إذ كيف يتحدث عن التعايش عند المسلمين ثم يورد فهم غيرهم ليستدل به على حقيقة التعايش عند المسلمين كما فهموه من أصولهم.

٤- يطلق أحكاماً مجردة دون أن يذكر لها أي شاهد أو دليل، كقوله: (كان على الذمي أن يتكل على السلطات العامة من أجل حمايته من الاعتداءات وغيرها من أسباب الأذية، وبينما كانت هذه الحماية غالباً مؤمنة، لم تكن مستطاعة حتماً في أوقات الشغب والفوضى والشعور الناتج عن الاضطرابات، هذا الشعور ورد ذكره كثيراً في كتابات أهل الذمة) (٢)، ولم يأت بأي شاهد على ذلك، ولم يذكر أي مصدر تاريخي يشير إلى مثل هذه الحالة التي يدعيها، مما يجعل ذلك بمثابة فرضية خيالية، أو تعبيراً عن حالة من الشعور بالحقن أو الكره الداخلي في أعماق نفس الكاتب.

٥- يعمد إلى أساليب التشويه لأحكام إسلامية تتعلق بمسألة التعايش من خلال تجريدها من ارتباطاتها، وتقديم صورة مبتورة لها، ووضعها في سياقات مختلفة بما يخدم تشويهها أو تضخيمها وأنها الصورة النمطية التي تُقدم الإسلام للآخر.

وهو ما فعله تحديداً مع مسألة الجزية في الإسلام حيث استجلبها في العشرات من مؤلفاته، وفي كل مرة أراد أن يقدم صورة التعايش الإسلامي مع الآخر، وهو أمر محمود لو أبرزه على صورته الحقيقية وارتباطاته التشريعية، لكنه يُقدم الذمي الذي يدفعها بصورة المثقل بالأعباء المادية، والذي ربما يتخلّى عن قناعاته الدينية فيعلن إسلامه بسبب ما يصفه بـ "الأعباء المالية"، ولا يُشير إلى ما يتمتع به من الحماية والرعاية مقابل ما يؤديه من الجزية، ولا يذكر أنها تسقط عن العاجز وعن المرأة والصغير، بل لا يُقيم التقويم الصحيح لما يصفه بالأعباء المادية، وأنه أقل مما يجب في مال المسلم نفسه من مقدار الزكاة الواجب في ماله (٣)، فهو يستغل عنصري البتر من السياق والتضخيم لتصوير الأمور على غير حقيقتها ليقدم صورة نمطية سلبية للتعايش الإسلامي مع الآخر.

١ - برنارد لويس، الهويات المتعددة للشرق الأوسط، ترجمة حسن بحري، ص ١٨٥، دار الينابيع بدمشق ٢٠٠٦م، الطبعة الأولى.

٢ - برنارد لويس، اليهود في ظل الإسلام، ص ٤٧، مركز الدراسات العسكرية بدمشق ١٩٩٥م.

٣ - انظر كتابه: أزمة الإسلام، ترجمة حازم محسن، ص ٧٢، دار صفحات بدمشق ٢٠١٣، الطبعة الأولى. وانظر كتابه: اليهود في ظل الإسلام، ص ١٥، ص ٣٥ "مرجع سابق".

كذلك ما ذكره في كتابه: لغة الإسلام السياسي، ترجمة عبدالكريم محفوظ، ص ١٢٨، دار جفرا للدراسات بدمشق ٢٠٠١م، الطبعة الأولى.

أيضاً في كتابه الهويات المتعددة للشرق الأوسط، ص ١٩٠ "مرجع سابق".

أيضا نراه يعمد إلى التشويه في مسائل أخرى متعددة، فمثلا حالة الصلح التي تمكن غير المسلم من العيش الرغيد داخل المجتمع المسلم في تسامح وأمن لا يجده في مجتمع آخر يصفها بـ"التسامح الإكراهي"، يقول لويس: (يمكن لغير المسلمين أن يعيشوا في كنف التسامح الإسلامي الإكراهي) (١)، يشير بذلك إلى أن التسامح في الإسلام حالة اضطرارية قائمه على الإكراه، وسيأتي ذكر شواهد تاريخية عديدة ينقلها أرنولد من حديث غير المسلمين من داخل المجتمعات الإسلامية التاريخية توضح غير ذلك.

٦- التفسير المادي للتعایش في الإسلام، فعلى الرغم من كون التعایش مطلباً إنسانياً وأخلاقياً أسست له الشرائع السماوية، إلا أننا كثيرا ما نجد لويس يفسر التعایش في الإسلام تفسيرا ماديا صرفا، فنجد أنه يتحدث عن موادة النبي ﷺ لليهود في المدينة على أنها غرضية ومادية، يقول: (وليس هذا الكتاب معاهدة بالمعنى الأوروبي بل تصريحاً من جانب واحد، وكان الغرض منها عمليا وإداريا صرفا، ويبين طبع النبي ﷺ) [الحذر الحريص.. وكانت خطوة أولى نحو الحكم الاستبدادي الإسلامي] (٢).

كما فسر ما حصل بين المسلمين في المدينة وبين أهل مكة الذين آذوهم واضطهدوهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم من محاولة اعتراض قافلة أبي سفيان بأنها (سطو) وأنها المهنة التي امتنها المهاجرون للمدينة الذين كانوا حينها مُعْدمين من الناحية الاقتصادية (٣).

كذلك يزعم بأن المسلمين من غير العرب أثناء بداية الفتوحات لم يحظوا بمنافع مادية كما حظي بها المسلمون العرب، يقول: (وعدم التفريق بين الإسلام والعروبة واضح في موقفهم تجاه المسلمين الجدد الذين أخذوا يتدافعون من بين الشعوب المغلوبة إلى الدخول في الإسلام، وكانت فكرة وجود مسلمين من غير العرب غير متوقعة إلى حد أنه لم يكن يُسمح لهؤلاء بدخول الدين إلا إذا أصبحوا موالى أو أنصارا لأحد القبائل العربية).

ومع أن الموالى كانوا من الناحية النظرية يقفون على قدم المساواة مع العرب ومُعْفين من الضرائب فقد ظل العرب ينظرون إليهم نظرة استعلاء واستخفاف بهم، وظلوا مدة طويلة يحرمونهم من المنافع المادية التي أسبغها عليهم الإسلام) (٤)، وكعادة لويس لم يذكر شاهدا لهذا الادعاء ولا مصدرا تاريخيا أشار لمثل ذلك، وعدم التفريق بين المسلمين للعروبة أو غيرها يعد من أصول الإسلام، يقول ﷺ: (لا فضل لعربي على أعجمي.. ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى الناس لآدم وآدم من تراب) (٥)، ولم تفرق آية في كتاب الله بين مسلم عربي ومسلم آخر، وكل من دخل الإسلام من عرب أو غيرهم جرت عليهم أحكام الإسلام على حد سواء.

١ - برنارد لويس، الهويات المتعددة للشرق الأوسط، ص ١٩١ "مرجع سابق".

٢ - برنارد لويس، العرب في التاريخ، ص ٥٥ "مرجع سابق".

٣ - المرجع نفسه، ص ٥٧.

٤ - المرجع نفسه، ص ٧٩.

٥ - رواه الإمام أحمد في مسنده، حديث (٢٣٣٨٠)، (١٢/١٧) دار الحديث بالقاهرة ١٤١٦ هـ الطبعة الأولى.

وقال ابن تيمية رحمه الله: (رويناه بإسناد صحيح من حديث سعيد الجريري) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ص ٢٤٦ دار الفضيلة بالرياض ١٤٢٤ هـ الطبعة الأولى.

كما نجده يتحدث عن المنافقين الذين كانوا في المدينة زمن النبوة بأنهم أصحاب معارضة شديدة وأن معارضتهم للنبي ﷺ لم تتوقف إلا حينما جلب لهم الإسلام (منافع ملموسة) (١)، ولو كان المنافقون يبدون معارضة شديدة كما ذكر لا تضح أمرهم وانكشف حالهم، لكن إشكالية المنافقين تكمن في عدم إظهار حالهم بسبب الضعف الذي يستشعرونه، ولا نعلم حقيقة ما يقصده بالمنافع الملموسة إلا أننا نعلم موقف الإسلام الصارم تجاه النفاق والسورة التي نزلت في المنافقين.

وكل من وقف على التاريخ الإسلامي زمن النبي ﷺ وزمن خلفائه، وعلم هدي الإسلام في المسائل التي سعى إلى تشويهاها وإظهارها على غير حقيقتها يدرك غرضية لويس ونزعتة إلى التشويه، ولولا تحرره من التوثيق وذكر الشواهد لما استطاع أن يُقدم لقارئه ما عرضه عليه من ادعاءات وتزييف.

٧- يرتكز في تصوره عن التعايش الإسلامي مع الآخر إلى التعايش الإسلامي مع اليهود بشكل كبير، فكثيرا ما يردد ما وقع بين المسلمين وبين اليهود زمن النبي ﷺ، وخاصة بعد هجرته إلى المدينة حيث جاورهم، إضافة للتعايش مع اليهود زمن الخلفاء الراشدين وعهد الفتوحات، ويجعل ذلك قاعدة يرجع إليها في تعايش المسلمين مع كل من يخالفهم المعتقد بشكل عام، على تفصيل في ذلك كما سيتبين لاحقا في المبحث الثالث، ولذلك جاء أكثر الاستشهادات من كلامه من خلال كتابه (اليهود في الإسلام).

المطلب الثاني: توماس أرنولد ومنهجيته في تصور التعايش في الإسلام (١٨٦٤-١٩٣٠)

توماس ووكر أرنولد Thomas Walker Arnold مستشرق إنجليزي ولد في Devenport سنة ١٨٦٤، وتعلم في مدرسة بلايموث الثانوية، وانتقل عام ١٨٨٠ للدراسة في "مدرسة مدينة لندن"، ثم التحق بكلية المجدلية بجامعة كامبردج سنة ١٨٨٢م حيث اجتذبت الدراسات الشرقية بتأثير إدوارد بيلس كورل Ed. Byles Courell، ووليم روبرتسون اسمث William Robertson Smith، وبعد نجاحه في الكلاسيكيات، أمضى السنة الرابعة بكامبردج في دراسة تاريخ الإسلام.

ولاهتمامه بدراسة الإسلام فقد اختير لتدريس الفلسفة في كلية عليكره الإسلامية في مقاطعة بشمال الهند، وأمضى في كلية عليكره عشر سنوات (١٨٨٨-١٨٩٨) وكان لتلك الفترة تأثير بالغ في تشكيل رؤية أرنولد تجاه الإسلام، إذ تأسست هذه الكلية بهدف الجمع بين الثقافة الإسلامية والفكر العلمي المنهجي الأوروبي، وشارك أرنولد في هذه الفكرة بحماس شديد، وراح يُكوّن تلاميذ من الإنجليز والهنود مشبعين بهذا الاتجاه، وألف داخل كلية عليكره جمعية تدعى "أنجمن انعرض" أي (جمعية الواجب) وتعاون مع أعضائها لهذا الغرض.

١ - انظر: برنارد لويس، العرب في التاريخ، ص ٥٤ "مرجع سابق".

وفي عام ١٨٩٨م انتقل إلى مدينة لاهور حيث عُيّن أستاذًا للفلسفة في الكلية الحكومية هناك، والتي صارت فيما بعد جامعة لاهور، وتتلّمذ على يديه هناك الشاعر محمد إقبال صاحب فكرة إنشاء دولة باكستان المستقلة عن الهند.

ترك أرنولد العمل في الهند عام ١٩٠٤م، وعاد إلى لندن حيث شغل منصب نائب مدير مكتبة "الديوان الهندي" بلندن، وفي نفس الوقت كان يقوم بتدريس اللغة العربية في الكلية الجامعية بجامعة لندن، كما شغل عام ١٩٠٩م منصب المستشار التربوي للطلبة الهنود بإنجلترا، واستمر بها إلى أن تمت إحالته للتقاعد سنة ١٩٢٠م.

ولما تأسست "مدرسة الدراسات الشرقية" في جامعة لندن عام ١٩١٧م دُعي أرنولد للتدريس فيها، وكان أول من شغل كرسي اللغة العربية والدراسات الإسلامية بها، واستمر في العمل بتكوين وتنشيط دوائر قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية حتى رسخ هذا القسم، وصار من أقوى المراكز الرئيسة في هذا الشأن.

ثم دعت الجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) سنة ١٩٣٠م للعمل بها أستاذًا زائرًا، وبعد أن أمضى نصف العام الجامعي للتدريس بقسم التاريخ بالجامعة عاد إلى لندن وتوفي بمنزله في كنسجتون عام ١٩٣٠م، وهو في السادسة والستين من عمره.

نال العديد من الألقاب الشرفية، منها: زميل شرفي لكلية المجدلوية في كامبردج سنة ١٩١٧م، والدكتوراه الفخرية من جامعة براج بتشيكوسلوفاكيا، كما انتخب عضواً في الأكاديمية البريطانية، وهي أعلى هيئة علمية في بريطانيا آنذاك، وذلك سنة ١٩٢٦م.

ومع انشغاله بالتدريس وبالعديد من المناصب والأعباء الإدارية إلا أنه ترك العديد من المؤلفات وأهمها كتابه "الدعوة الإسلامية" وقد تُرجم إلى العديد من اللغات، وله أيضاً كتاب بعنوان: "الدين الإسلامي"، وكتاب "التصوير في الإسلام" كما اشترك مع المستشرق النمساوي Adolf Grohmann بإصدار كتاب بعنوان: "الكتاب الإسلامي"، واشترك أيضاً مع المستشرق البريطاني ألفريد غليوم Alfred Guillaume وآخرين بإصدار كتاب بعنوان: "إرث الإسلام" The Legacy of Islam، وله كتاب بعنوان: "بهزاد ورسومه في مخطوط ظفرنامه"، كما كتب مادتي "الاضطهاد" و"التسامح" في الإسلام في "موسوعة الدين والأخلاق"، كما كتب عدة مقالات في "دائرة المعارف الإسلامية" والتي كان أحد أعضاء هيئة تحريرها (١).

منهجيته في تصور التعايش في الإسلام

يمكننا أن نحدد إطار منهجية أرنولد في صياغة منظوره عن التعايش في الإسلام من خلال ما يلي:

١ - انظر: د. عبدالرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٩، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ٢٠١٥م، الطبعة الخامسة.

وانظر: د. صابرينا لي Dr. Sabrina Lei، مقدمة لكتاب توماس أرنولد "الدعوة إلى الإسلام" Introduction to Thomas Arnold's Preaching of Islam، ص ٥، مركز تواصل بإيطاليا، دون الإشارة لتاريخ نشر.

١ - الارتباط الوثيق بالمصادر التاريخية الأولية، والاعتماد على الشواهد والأدلة التاريخية. فمن يتتبع أرنولد في حديثه عن التعايش في الإسلام يجده يربط الأحكام بالوقائع والأحداث، ولا يكاد يأتي برأي إلا من خلال ما يدعّمه ويؤكدّه من الشواهد، وقد اعتمد على الكثير من المصادر التاريخية العربية فمن ذلك سيرة ابن إسحاق، وتاريخ الطبري، وطبقات ابن سعد، ومروج الذهب للمسعودي، والاعتبار لأسامة ابن منقذ، وفتوح البلدان للبلاذري، وفتوح الشام للأزدي، وخطط المقرئزي، ووفيان الأعيان لابن خلكان، بالإضافة إلى مؤلفات الغربيين من أمثال كايثاني Caetani، وجوتهيل G,ttel، وفون كريمر Von Kremer، وغيرهم، ويعرف كل من له اطلاع على الكتابات الغربية مدى أهمية هذه المنهجية، وما يفترض أن ينتج عنها من نتائج تكون مقاربة للوقائع التاريخية على أقل تقدير.

٢ - افتراض جميع الاحتمالات للوصول للمعرفة الصحيحة. ويُسمى الأصوليون -علماء أصول الفقه- هذه الطريقة بـ (السبر والتقسيم)، وقد استخدموها كأحد مسالك استنباط علة الحكم الفقهي، وهي طريقة قائمة على حصر الافتراضات الممكنة ومن ثم استبعاد ما لا يصح منها حتى يبقى الافتراض الصحيح (١)، ومثال ذلك في كتاب الله قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [سورة الطور الآية ٣٥]، فقد ذكر سبحانه الافتراضات العقلية الصحيحة وغير الصحيحة، ليستبعد العقل السليم غير الصحيح منها ويخلص إلى التسليم بالفرضية الصحيحة.

وقد استخدم أرنولد هذه الطريقة العلمية في العديد من المواضيع، فمن ذلك حديثه عن العهود والمواثيق التي أعطاهها المسلمون لأهالي المدن التي خضعت لحكمهم وتعهدوا بحمايتهم وحماية ممتلكاتهم، يقول عن هذه العهود ومدى صحة ما تضمنته: (يمكن الحكم على مدى هذا التسامح -الذي يلفت النظر في تاريخ القرن السابع- من هذه العهود التي أعطاهها العرب لأهالي المدن التي استولوا عليها وتعهدوا لهم فيها بحماية أرواحهم وممتلكاتهم وإطلاق الحرية الدينية لهم في مقابل الإذعان ودفع الجزية.

وليس من السهل أن نستخلص تفاصيل هذه العهود الدقيقة مما أصبح يشوبها من زيادات، وسواء أكانت هذه التفاصيل صحيحة بلفظها أم لم تكن، فهي على جانب من الأهمية من حيث أنها تمثل الرواية التاريخية التي أخذ بها المؤرخون المسلمون في القرن الثاني الهجري وهي رواية كان من العسر أن تستقر دعائمها لو أن هناك دليلاً يقوم على إثبات عكسها) (٢).

١ - انظر: ابن بدران الدمشقي، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ص ١٥٦، المطبعة المنيرية بالقاهرة، دون الإشارة لتاريخ طبع.

وانظر: عبدالوهاب خلاف، علم أصول الفقه، ص ٧٧، دار القلم بالكويت ١٤٠٨ هـ، الطبعة الثانية.

٢ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د.حسن إبراهيم حسن ود.عبدالمجيد عابدين، ص ٧٤، مكتبة النهضة بمصر ١٩٧٠م، الطبعة الثالثة.

فانظر كيف استطاع أن يُرَجِّح صحة هذه الروايات التي تحدثت عن عهود ومواثيق المسلمين، فافتراض افتراضا ذهنيا يدعي عكس تفاصيل هذه المواثيق والعهود لكن هذا الافتراض لم يجد له (دليلا يقوم على الإثبات) [على حد تعبيره]، فكان بطلان هذا الافتراض مؤشرا مرجحا لصحة هذه المواثيق والعهود.

٣- تأكيده المتكرر على وجود تصور غربي خاطئ عن التعايش الإسلامي، مما يجعله أحد أهم الشخصيات الاستشرافية التي أسهمت في النقد الذاتي الغربي المبكر في مسألة التعايش الإسلامي تحديدا.

يقول توماس أرنولد: (المهم أن نبين كيف أن محمدا عندما رأى أنه على رأس جماعة مسلحة من أتباعه لم يتحول دفعة واحدة كما يريدنا البعض على الاعتقاد من داعية مسالم إلى متعصب يحمل سيفه بيده ويفرض دينه على كل من استطاع).

وقد أكد الكتاب الأوروبيون مرارا أن النبي ﷺ سلك مسلكا جديدا تمام الجدة منذ أن هاجر إلى المدينة، ومنذ أن تغيرت ظروف حياته هناك، وأنه لم يعد ذلك البشير النذير المرسل إلى الناس الذي كان قد أقنعهم بالحجة بصدق الدين الذي أوحى إليه، وإنما ظهر الآن أقرب إلى أن يكون متعصبا مندفعاً يستغل كل ما في سلطته من قوة ومهارة وسياسة في فرض نفسه وفرض آرائه.

على أنه من الخطأ أن نفترض أن محمدا في المدينة قد طرح مهمة الداعي إلى الإسلام والمبلغ لتعاليمه، أو أنه عندما سيطر على جيش كبير يأتذر بأمره انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين، فهذا ابن سعد يعرض طائفة من الكتب التي بعث بها النبي من المدينة إلى الشيوخ وغيرهم.. بالإضافة إلى هذه الكتب التي أرسلها إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى اعتناق الإسلام.

[إلى أن يقول] وسنجد في الصفحات التالية أمثلة من البعوث الدينية التي أرسلها لتبلغ الإسلام إلى الذين لم يُسلموا من قبائلهم، تلك البعوث التي يدل مجرد إخفاقهم في بعضها على أن الجهود التي بُذلت كانت ذات صبغة تبشيرية خالصة، كما تدل على أنها لم تكن تميل إلى استخدام القوة، ومن الأمثلة الواضحة على إخفاق تلك البعثات، تلك البعثة التي أرسلت إلى بني عامر بن صعصعة في السنة الرابعة للهجرة.. فأرسل النبي ﷺ جماعة تتألف من أربعين مسلما معظمهم من شباب المدينة الذين حذقوا تلاوة القرآن، ولكنهم قُتلوا غدرا بالرغم من الأمان الذي عرضه عليهم أبو البراء عامر، ولم ينج بحياته إلا ثلاثة منهم (١)، فقد صرح بأن وصف النبي ﷺ وأصحابه بـ(الجماعة المسلحة) هو أمر يُراد أن يُملى عليه من البعض، ثم حدد ما يقصده بكلمة (البعض) من أنهم (الكتاب الأوروبيون) الذين يرون أن النبي ﷺ استغل سلطته وقوته الجديدة في فرض نفسه ورأيه بالقوة، وهذه شجاعة علمية تتمثل في القدرة على نقد الذات، والتحرر من قيود المتابعة لأساتذته الأوروبيين من المستشرقين، لاسيما حين نراه يحكم بخطأ رأيهم قائلا (من الخطأ أن نفترض...) وساق بعد ذلك الشواهد والأدلة التي تؤكد على هذا الخطأ.

أيضا نراه يكرر هذا النقد الذاتي مرات أخرى، فبعد أن وجه نقدا لمن وصفهم بـ (الكتاب الأوروبيون) يقول أرنولد: (أخذ المؤرخون المسيحيون ينظرون إلى السيف على أنه أداة للدعوة الإسلامية، وفي ضياء

١ - المرجع نفسه، ص ٥٤.

وانظر في قصة بني عامر بن صعصعة: الطبري، تاريخ الأمم والملوك (٣/٣٣) "مرجع سابق".

النصر الذي عُزي إليه حُجبت مظاهر النشاط الحقيقي للدعوة (١)، وهنا نجده يوجه نقده لمن يصفهم بـ(المؤرخون المسيحيون) وفي وصفه لهم بكلمة (المسيحيون) إشارة واضحة لسبب تمسكهم باعتبار السيف أداة الدعوة إلى الإسلام، وأن السبب هو اختلاف عقائدي حجبهم عن السبب الحقيقي الذي يراه، وهو: (النشاط الحقيقي للدعوة).

لقد كان أرنولد من رواد المستشرقين في النقد الذاتي حول مسألة التعايش الإسلامي مما أثار حوله موجة غضب واسعة في الأوساط الاستشراقية والتبشيرية في الغرب، وجعله محل نقد واستياء عدد من كبار المستشرقين، من أمثال المستشرق البريطاني هارتويك هرشفلد HARTWIG HIRSCHFELD الذي انتقده بشده ووصفه بأنه اشتط وبالغ في سبيل اظهار سلمية انتشار الإسلام وأنه أغفل دور السيف في انتشار الإسلام، كما انتقده المستشرق الأمريكي دونكان مكدونالد DUNCAN MACDONALD ووصفه بأنه مضلل لم يعرض إلا صورة لجانب صغير جدا لانتشار الإسلام، وجعلها تغطي جوانب أخرى من الاضطهاد والعدوان الذي مارسه المسلمون على الشعوب الأخرى (٢).

٤- لا يغفل عن قيمة النصوص الشرعية وأهميتها في الوصول إلى معرفة صحيحة للتعايش الإسلامي مع الآخرين والتسامح معهم.

فمع تقصي أرنولد للوقائع التاريخية واستدلاله بها على فهم الحقائق في علاقة المسلمين مع الآخر والتسامح معه، نجده أيضا رغم اختلافه العقائدي مع الإسلام يضع للنصوص الشرعية أهمية في بيان صورة الإسلام الحقيقية في مبدأ التعايش، يقول أرنولد: (كان الإسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة.. وقد كانت حياة محمد ﷺ تمثل هذه التعاليم ذاتها.. لقد جاء القرآن مشددا في الحض على هذه الطرق السلمية، في غير آية منه، فمن ذلك: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي

النِّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝﴾ [سورة ٧٣ آية ١٠-١١] ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
آيَاتِ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝﴾ [سورة ٤٥ آية ١٣].

ولم تكن هذه التعاليم مقصورة على السور المكية وإنما وردت أيضا بكثرة في الآيات المدنية، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ

١ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٦٤ "مرجع سابق".

٢ - انظر مقالة هرشفلد بعنوان: Review of Thomas Arnold, the preaching of Islam Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland (Jul, 1899)

وانظر مقالة مكدونالد بعنوان: Review of Thomas Arnold, the preaching of Islam, The American Journal of Theology (Jan, 1898)

وقد تحدث عن هذه الموجات من الانتقادات أ.د. ناصر جاسم في بحثه: المستشرق توماس أرنولد والتحول في الدراسات الاستشراقية، ص ١٧٨، مجلة آداب الفراهيدي، عام ٢٠١٣، العدد (١٧).

تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٣﴾ [سورة ٢٤ آية ٥٣] ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافِيَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة ٥ آية ١٣] (١).

ويقول أنرولد أيضا: (ذكرنا من قبل الآيات القرآنية التي تنهى عن الإكراه في الدين، وتوصي بالدعوة باعتبارها الوسيلة الشرعية الوحيدة لنشر هذه العقيدة، ويؤكد هذا المبدأ نفسه ما قرره الأئمة من المسلمين) (٢)، فنلاحظ كيف استخدم مصطلح (الوسيلة الشرعية الوحيدة) وربط ذلك بما (قرره الأئمة من المسلمين) بعد أن أشار إلى ما ذكره من آيات القرآن الكريم وكأنه يسير على طريقة فقهاء المسلمين في الاستدلال والحكم.

٥- يرتكز في تصوره عن التعايش الإسلامي مع الآخر إلى التعايش الإسلامي المسيحي بشكل كبير.

فكثيرا ما يردد ما وقع بين المسلمين وبين النصارى زمن النبي ﷺ وأزمة الفتوحات في الشام ومصر وغيرها، ويجعلها قاعدة يؤصل عليها تعايش المسلمين مع من يخالفهم المعتقد بشكل عام، في حين أن برنارد لويس يركز بشكل كبير على التعايش الإسلامي اليهودي كما سبق بيانه.

المبحث الثاني: رؤية كل منهما لدوافع انتشار الإسلام

يُعد سؤال كيف انتشر الإسلام؟ أو ما هو دافع انتشار الإسلام؟ من أهم الأسئلة التي شغلت الفكر العالمي، وأخذت به في اتجاهات متعددة للبحث عن إجابة هذا السؤال، ومن خلال إجابته وتفسير كيف انتشر الإسلام يتم رسم صورة التعايش في الإسلام والتعامل معه على أساس هذا التفسير.

ومنذ أن ابتدأ الوحي على نبي الإسلام ﷺ اقترن التنزيل مع التبليغ، وكان على مراحل ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

الْأَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء الآية ٢١٤]، إلى أن أصبح عاما لسائر البشرية ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ

الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [سورة الفرقان الآية ١].

وقد تأسس التبليغ على أسس ومناهج تكفل للناس حرياتهم وكراماتهم وكافة حقوقهم، يقول تبارك وتعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ

١ - توماس أنرولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٨ "مرجع سابق".

٢ - المرجع نفسه، ص ٤٦٢.

بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿ [سورة النحل الآية ١٢٥]، كما كان من ضمن أسس التبليغ أن الاختيار هو قرار حر لكل إنسان، ولا يحق ممارسة أي ضغط أو إكراه عليه ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [سورة البقرة من الآية ٢٥٦]، وحرية الاختيار هذه مرتبطة بالمصير ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [سورة الكهف من الآية ٢٩]، وعلى هذا المنهج من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن انتشر الإسلام انطلاقاً من المدينة المنورة، ثم ما حولها، ثم في كل أنحاء الجزيرة العربية، ثم في البلاد المجاورة لها، ثم ما وراءها من بلاد، دخل الناس أفراداً وجماعات في هذا الدين الذي وجدوا فيه العدل والرحمة والهداية. ولم يأذن الإسلام في القتال إلا لرفع الظلم والعدوان عن المؤمنين ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [سورة الحج الآية ٣٩] بل حرم كافة أشكال التعدي على الآخرين مؤكداً أن مشروعية القتال تقتصر على رفع الظلم والدفاع عن النفس، ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة البقرة الآية ١٩٠]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (القتال هو لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله، كما قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة البقرة الآية ١٩٠]، وفي السنة النبوية ورد عنه ﷺ: (أنه مر على امرأة مقتولة في بعض مغازيه، قد وقف عليها الناس فقال: ما كانت هذه لتقاتل وقال لأحدهم: الحق خالد قتل له: لا تقتلوا ذرية ولا عسيفا) (١) (٢).

١ - رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب (١٢١) في قتل النساء، حديث ٢٦٦٩، ص ٤٢٥ "مرجع سابق".
ورواه ابن ماجة في أبواب الجهاد، باب (٣٠) الغارات وقتل النساء والصبيان، حديث ٢٨٦٩، (١٤٣/٢) شركة الطباعة العربية السعودية ١٤٠٤ هـ، الطبعة الثانية.
كما رواه الحاكم في المستدرک، وقال: (وهكذا رواه المغيرة بن عبد الرحمن وابن جريج عن أبي الزناد فصار الحديث صحيحاً على شرط الشيخين، ولم يخرجاه) كتاب الجهاد، حديث ٢٦٢١، (١٤٧/٢) دار الحرمين للطباعة والنشر بالقاهرة ١٤١٧ هـ، الطبعة الأولى.
والعسيف كما ذكر ابن الأثير: (قيل الشيخ الفاني، وقيل العبد) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٩٦/٣) المطبعة العثمانية بمصر ١٣١١ هـ.
٢ - ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ص ١٢٤، دار المعرفة ببيروت دون الإشارة لتاريخ طبع.

فهذا ما قررته الأصول والثوابت وطبقه النبي ﷺ وصحابته من بعده، إلا أن بعض الدراسات الحديثة والغربية على وجه الخصوص لا تستند في رؤيتها وأحكامها على الأصول والشواهد، وإنما تستند إلى الدراسات الاجتماعية التاريخية وتستقرئ الروايات التاريخية بمنظار مؤثرات إيديولوجية وصراعات قديمة، ومن خلالها تخلص إلى تصورها وتصيغ رؤيتها، كما كان لنظريات الصراع والصدام العالمي نصيب في صناعة كثير من الرؤى الغربية.

المطلب الأول: رؤية لويس لدوافع انتشار الإسلام

تنطلق رؤية لويس حول قضية انتشار الإسلام من زاوية مادية بحتة، بعيدة عن قضية الإيمان والتصديق القلبي بالمعتقد والرغبة باعتناقه، ويمكننا أن نجمل دوافع انتشار الإسلام من منظوره فيما يلي:

١- أن الفتوحات الإسلامية التي نشرت الإسلام في كل مكان، هي في حقيقتها توسع عربي سببه البحث عن مخرج لمشكلة الازدحام السكاني في الجزيرة العربية، يقول برنارد لويس: (كانت الفتوحات العظيمة في الأساس توسعا لا للإسلام، بل للأمة العربية التي دفعها اشتداد ازدحام السكان في موطنها الأصلي إلى أن تبحث عن مخرج في البلاد المجاورة، وهي أي الفتوحات واحدة من سلسلة الهجرات التي حملت الساميين مرة أخرى إلى الهلال الخصيب وما وراءه) (١). والفتوحات لم تكن بوابة اعتناق الناس للإسلام ودخولهم فيه، وإيمانهم بما جاء به الإسلام، وإنما هي حماية لمن دخل في الإسلام، وتمكين لهم من أداء ما فرضه عليهم هذا الدين، إذ أن اعتبار الفتوحات سببا مباشرا لدخول الناس في الإسلام يتعارض مع المقرر في القرآن الكريم ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة من الآية ٢٥٦]، فضلا عن ذلك لم يقدم أي دليل على دعواه المتعلقة باعتبار الفتوحات حلا للتوسع السكاني، كما أنه لا يتوفر اليوم إحصاء سكاني لسكان الجزيرة العربية أو لما جاورها في ذلك الزمن، فكيف وصل إلى هذه النتيجة؟ إضافة لما كان عليه حال تلك الديار من حسن إسلامهم بل ظهور عدد من كبار علماء الإسلام منهم في الفقه والحديث وعلوم القرآن الكريم، ولو كان الغرض أزمة سكان لكان الانتقال من الجزيرة العربية إلى الديار المجاورة لها مستقلا ومعزولا تماما عن قضية انتشار الإسلام التي لا تتأتى إلا عن إيمان وتصديق بالقلب لهذا الدين وما جاء به ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [سورة المائدة من الآية ٥].

٢- أن الفتوحات التي نشرت الإسلام كانت نتيجة للمشاكل العربية الداخلية والاقتصادية، يقول لويس: (وكان الفتحان، أي فتح الجزيرة العربية وفتح الولايات المجاورة لها مثل العراق وسورية ومصر، متشابهين ومتداخلين لا متتابعين وكان من الجائز ألا تُقهر قبائل بلاد العرب لو لم تُهيء هذه الفتوح في الشمال حلا جذابا لمشاكل بلاد العرب الداخلية والاقتصادية، ولم تكن أولى

١ - برنارد لويس، العرب في التاريخ، ص ٧٥ "مرجع سابق".

الحملات التي وُجّهت إلى الشمال سوى غارات غرضها النهب لا الفتح، وعقب ذلك وعندما كُشِفَ العرب ضعف أعدائهم قاموا بالفتح (١).

وهذا الادعاء لا يعضده أي دليل ليذهب به في هذا الاتجاه، بل إن رسائل النبي ﷺ لكسرى وقيصر والمقوقس التي سبقت الفتوحات نصت على دعوته لهم للإسلام، فمما جاء في رسالته لقيصر ملك الروم: (إني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (٢) (٣)، وهذا ما تابع عليه خلفاؤه من بعده، ولو كان الغرض حلا لمشاكل داخلية أو اقتصادية لما كانت دعوتهم إلى الإسلام هي أول ما نصت عليه رسائل النبي ﷺ لملوكهم وزعمائهم.

٣- أن الفتوحات كانت لأغراض دنيوية مادية، يقول لويس: (وكانت القوة الدافعة في الفتوح دنيوية أكثر منها دينية، وتتضح هذه الحقيقة عند دراسة شخصيات بارزة بينها رجال من طراز خالد، وذلك أننا نجدهم نفعيين لا يولون الدين إلا اهتماما شكليا) (٤).

ولم يأت بشاهد لدعواه، وإنما ساقها بلا دليل أو شاهد، في حين أن الشواهد تؤكد عكس ذلك فخالد بن الوليد رضي الله عنه الذي اتهمه بالنفعية بهتاناً وزوراً قدم روحه رخيصة في سبيل الله في مواطن كثيرة يطلب الشهادة وما عند الله، وكانت مواطن صعبة لم تكن الموازين فيها متكافئة وإنما كانت أقرب لصالح الجيوش التي تُقاتل المسلمين، كما في معركة اليرموك التي كان فيها عدد جيش الروم أضعاف جيش المسلمين، إضافة لما معهم من عتاد وقوة (٥)، وعندما حضرته الوفاة قال: (إذا أنا مت فانظروا في سلاحي وفرسي فاجعلوه عدة في سبيل الله) (٦)، فما هو النفع الذي وجد خالدا يطلبه؟ وأين كان اهتمامه بالدين شكلاً! وهو يقدم روحه في كل معركة في سبيل الله يطلب الشهادة.

٤- شعور غير المسلمين بالدونية تحت هيمنة الدين الجديد، الأمر الذي دفعهم إلى اعتناق الإسلام ليخرجوا من هذا الخضوع، يقول لويس: (لقد هُزمت المسيحية دون أن تدمر كلياً بمجيء الإسلام وتأسيس الدولة الإسلامية، لكن عمليات الاستيطان العربية والتحول إلى الدين الإسلامي، وتمثل الثقافة السائدة هذه كلها قللت أعداد المسيحيين بالتدريج.. وفي بعض الأماكن وبخاصة في آسيا الوسطى وجنوب الجزيرة العربية وشمال أفريقيا حيث كانت النصرانية تشغل قبل دخول الإسلام موقعا بارزا، بل مهيمنا في هذه الأماكن كلها، لم يعد للنصرانية أي وجود يذكر.

بالنسبة إلى العديد من المسيحيين كان التحول من موقع الهيمنة إلى منزلة الرعية بكل ما يتضمنه ذلك من عواقب أكثر مما يُمكن احتمالها، فسعى عدد كبير منهم نحو ملجأ يحميهم من الخضوع عن طريق اعتناق

١ - برنارد لويس، العرب في التاريخ، ص ٦٩ "مرجع سابق".

٢ - قال القسطلاني هم: (الزراعيين نبه بهم على جميع الرعايا، وقيل الأريسيين ينتسبون إلى عبدالله بن أريس رجل كان يعظمه النصارى) القسطلاني، إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري (٦٥/٧) مطبعة بولاق بمصر ١٢٨٩ هـ، الطبعة الرابعة.

٣ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب (٤) قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، حديث ٤٥٥٣، ص ٩٤٩ "مرجع سابق".

٤ - برنارد لويس، العرب في التاريخ، ص ٧٦ "مرجع سابق".

٥ - انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٥/٧) دار الكتب العمية ببغروت ١٤١٥ هـ، الطبعة الأولى، وقد ذكر أن عدد الروم حينها كان مائتي ألف، بينما كان عدد المسلمين أربعة وعشرين ألفاً.

٦ - ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة (٧٤/٣) "مرجع سابق".

الإسلام والانضمام إلى العقيدة والجماعة السائدتين (١)، وسنجد هذا الموقف على العكس تماما عند توماس أرنولد الذي يرى أن السبب في سرعة دخولهم في الإسلام هو الرغبة في هذا الدين الجديد وعدله والتخلص من ظلم الروم واضطهادهم، إلا أن أرنولد أورد العديد من الشواهد والروايات التاريخية التي تؤكد دعواه، في حين أن لويس لم يورد أي شاهد يبين صحة ما توجه إليه.

٥- أن الفتوحات هي رغبات وتطلعات قديمة لدى العرب لتكوين إمبراطوريتهم القومية فهي حاجة سياسية واجتماعية عربية قديمة قائمة على الطموح العربي نحو بعث قوميته والرغبة في توسعها، يقول لويس: (سينهج المؤرخ الغربي نهج جيبون (٢) فيحاول أن يتعرف لا إلى الأسباب الأولية، بل إلى الأسباب الثانوية التي أدت إلى انتشار الدين انتشارا واسعا. فإن النبي ﷺ] لم يخلق حركة جديدة بقدر ما بعث تيارات كانت موجودة لدى العرب في أيامه، ووجهها هو توجيهها جديدا.

ويوضح لنا الانطلاق الجديد الذي عقب وفاة النبي ﷺ] بدل الانهيار الشامل الذي كان يُتوقع حدوثه أن سيرة النبي ﷺ] كانت استجابة لحاجة سياسية واجتماعية مُلحّة، وكان تطلع العرب نحو الوحدة قد وجد تعبيرا أوليا أصيب بالفشل وذلك في قيام امبراطورية كندة التي لم تعمر طويلا..

لقد أيقظ محمد ﷺ] القوى الكامنة المتطلعة إلى بعث وتوسع قوميين عربيين ووجههما توجيهها جديدا، أما إتمامه فقد تُرك للأخريين (٣).

وهذه الوحدة القومية التي يراها سببا لانتشار الإسلام تتنافى مع جوهر الإسلام الذي أكد على عالمية الرسالة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء الآية ١٠٧]، وهي الرسالة

التي سَيِّدَتْ كلا من بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي، وفي المقابل نصت على ﴿تَبَّتْ

يَدَايَ أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ﴾ [سورة المسد الآية ١] وأبو لهب ليس من أشرف العرب فحسب بل من

أشراف قریش، ولم يكن للعرب قبل الإسلام وحدة شاملة ذات سيادة على الأمم الأخرى حتى يقول بأن النبي ﷺ] (لم يخلق حركة جديدة بقدر ما بعث تيارات كانت موجودة لدى العرب) فهي دعوى تتعارض مع حقيقة واقع تاريخ العرب قبل الإسلام.

١ - برنارد لويس، اليهود في ظل الإسلام، ص ٢٦ "مرجع سابق".

٢ - هو إدوارد جيبون Edward Gibbon (1737-1794) أحد أشهر مؤرخي الإنجليز، مؤلف كتاب: (تاريخ انحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) في ست مجلدات، ويعد من أكمل المؤلفات التاريخية التي ظهرت في عهد التنوير الأوروبي، ونهجه الذي يشير إليه لويس هو نزعه في تفسير انتصار المسيحية على الرومانية لأسباب نفسية وفلسفية. انظر: إيمري نف Emery Neff، المؤرخون وروح الشعر، ترجمة د.توفيق إسكندر، ص ١٠١، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦١م، وقد نقل ترجمته له عن ترجمة جيبون لنفسه المطبوعة في لندن عام ١٨٩٧م.

٣ - برنارد لويس، العرب في التاريخ، ص ٦٣ "مرجع سابق".

المطلب الثاني: رؤية أرنولد لدوافع انتشار الإسلام

تنطلق رؤية أرنولد لأسباب توسع انتشار الإسلام من قراءة الأحداث التاريخية وتحليلها تحليلًا دقيقًا لغرض فهم طبيعة هذا الدين، وكيف أصبح جاذبًا لأعداد كبيرة من الناس سارعوا إلى اعتناقه وترك عقائدهم السابقة، ويمكن أن نجل أهم الأسباب التي أدت إلى انتشار الإسلام من وجهة نظر أرنولد فيما يلي:

١- الدعوة بالحسنى والإقناع وليس بالسيف والقوة، يقول توماس أرنولد: (من الخطأ أن نفترض أن محمدا [ﷺ] في المدينة قد طرح مهمة الداعي إلى الإسلام والمبلغ لتعاليمه، أو أنه عندما سيطر على جيش كبير ياتمر بأمره انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين، فهذا ابن سعد يعرض طائفة من الكتب التي بعث بها النبي [ﷺ] من المدينة إلى الشيوخ وغيرهم.. بالإضافة إلى هذه الكتب التي أرسلها إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى اعتناق الإسلام. [إلى أن يقول] وسنجد في الصفحات التالية أمثلة من البعوث الدينية التي أرسلها لتبلغ الإسلام إلى الذين لم يسلموا من قبائلهم، تلك البعوث التي يدل مجرد إخفاقهم في بعضها على أن الجهود التي بُذلت كانت ذات صبغة تبشيرية خالصة، كما تدل على أنها لم تكن تميل إلى استخدام القوة، ومن الأمثلة الواضحة على إخفاق تلك البعثات، تلك البعثة التي أرسلت إلى بني عامر بن صعصعة في السنة الرابعة للهجرة.. فأرسل النبي [ﷺ] جماعة تتألف من أربعين مسلما معظمهم من شباب المدينة الذين حذقوا تلاوة القرآن، ولكنهم قُتلوا غدرا بالرغم من الأمان الذي عرضه عليهم أبو البراء عامر، ولم ينج بحياته إلا ثلاثة منهم) (١).

فقد صرح أرنولد بخطأ الفكرة القائمة على طرح أثر الدعوة لهذا الدين والاقتصار على عامل الفتح الإسلامي، وبذلك يكون قد صرح بخروجه من دائرة تفكير أوروبية تركز على الماديات في تعليل الأسباب، وتعمد مرارا وتكرارا إلى التركيز على وجود قوة وسلطة للإسلام في المدينة لم تكن موجودة في مكة، وأن لهذه القوة المادية قدرات خارقة مكنت من التغلغل في قلوب الناس وفرض هذا الدين عليهم إيمانًا واعتقادًا صادقًا، وهذا ما لا يمكن أن تملكه القوة مهما بلغت.

وقد استطاع أرنولد من خلال قراءة شاملة لأحداث السيرة النبوية وما تلاها أزمنة الخلفاء الراشدين أن يصل إلى حقيقة العامل المؤثر الذي يملك التغلغل في القلوب والعقول المتمثل في الدعوة بالحسنى لهذا الدين، وضرب أمثلة من الواقع التاريخي الفعلي التي تؤكد ما كانت عليه حقيقة دعوة الإسلام من السماحة والسلم والدعوة بالحسنى حتى استطاعت جذب قلوب الناس فاعتنقوا الإسلام برغبة وصدق.

ويؤكد أرنولد على مدى تأثير وقوة عامل الدعوة بالحسنى في جذب قلوب الناس لهذا الدين منذ بداياته واستمراره بعد ذلك على هذا النهج، فيقول: (حمل الإسلام منذ البداية طابع الدين الذي يقوم على الدعوة

١ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٥٤ "مرجع سابق".

ويسعى لجذب قلوب الناس لتحويلهم إليه، وحثهم على الدخول في زمرة المؤمنين، وكما كانت الحال مبدأ الأمر كذلك ظلت على هذا النحو إلى اليوم) (١).

٢- المعاملة الحسنة، وتسامح المسلمين مع غيرهم، إذ يرى أرنولد أن التعامل الحسن الذي تعامل به المسلمون مع غيرهم كان عاملاً فاعلاً ومؤثراً في جذب الناس لهذا الدين الذي رأوا فيه حاجة إنسانية فطرية تتمثل في حسن التعامل، يقول أرنولد: (المعاملة الحسنة التي تعودتها وفود هذه العشائر المختلفة من النبي ﷺ)، واهتمامه بالنظر في شكائهم، والحكمة التي كان يصلح بها ذات بينهم.. كل ذلك جعل اسمه مألوفاً لديهم.. وكثيراً ما كان يفد أحد أفراد القبيلة على النبي ﷺ بالمدينة ثم يعود إلى قومه داعياً إلى الإسلام جاداً في تحويل إخوانه إليه) (٢).

كذلك يتحدث عن تعامل المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ فيقول: (لم يكن غريباً أن نجد كثيراً من البدو والمسيحيين ينجرفون في التيار الدافع لهذه الحركة الضخمة، وأن نجد كثيراً من القبائل العربية التي دانت بالمسيحية قروناً قد نبذتها في ذلك الوقت لتدين بالإسلام، وكان من بين هؤلاء قبيلة بني غسان الذين بسطوا نفوذهم شرقي فلسطين وجنوب سورية..

وبعد موقعة القادسية سنة ١٤ هـ التي انهزم فيها الجيش الفارسي، وفد على قائد المسلمين كثير من المسيحيين الذين ينتمون إلى قبائل البدو التي كانت تقيم على ضفاف الفرات، وقالوا إن القبائل الذين سبقوا إلى الإسلام كانوا أصوب منا رأياً، واليوم وقد قُتل رستم فلندخل في الدين، وشبيه بهذا أنه بعد فتح شمال الشام انضمت معظم القبائل البدوية بعد شيء من التردد إلى أتباع النبي ﷺ).

ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام، فمحمد ﷺ نفسه قد عقد حلفاً مع بعض القبائل المسيحية، وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمن وطمأنينة) (٣).

كما يؤكد دور المعاملة الحسنة ودورها الفعال ليس فقط في التأثير على غير المسلمين بل على الأجيال المتعاقبة التي تأتي من بعدهم، يقول أرنولد بعد أن يورد نماذج وقصصاً من تسامح المسلمين مع المسيحيين: (ومن هذه الأمثلة التي قدمناها أنفاً عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون إلى العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح، يقول لايارد Layard (٤) إنه صادف مخيماً من العرب المسيحيين في مدينة الكرك لا يختلفون عن العرب المسلمين بحال ما،

١ - المرجع نفسه، ص ٦٢.

٢ - المرجع نفسه، ص ٥٥.

٣ - المرجع نفسه، ص ٦٥.

٤ - أوستن لايارد Layard, Sir Austen, H (١٨١٧-١٨٩٤م) مستشرق ورحالة بريطاني، وكانت ولادته بباريس أشرف على الكشف الأثاري لموقع نينوى بالعراق، وله مصنف بعنوان: نينوى وأثارها، كما له مصنفات أخرى عن مدن العراق. انظر: العقيلي، المستشرقون (١٦٣/٢) دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٠م، الطبعة الرابعة.

سواء في الزبي أو في العادات، وقد أخبر رهبان طور سينا بركهاردت (Burckhardt) (١) أنه كان لا يزال هناك في القرن الماضي بعض أسر البدو المسيحيين الذين لم يدخلوا في الإسلام وأن آخرهم كانت امرأة عجوزا ماتت سنة ١٧٥٠، ودفنت بحديقة الدير) (٢).

وحديثه هنا عن الأجيال المتعاقبة هو تأكيد لقضية دور المعاملة الحسنة الذي استمر في نفوس الناس جيلا بعد جيل، ولو كان سبب دخولهم الإسلام هو تأثير القوة لما استمر هذا التأثير أجيالا كثيرة لم تكن القوة فيها حاضرة كما كانت في بداية الفتوحات، ويذكره لأمثلة ممن بقي على دينهم داخل ديار المسلمين إلى سنوات قريبة هو تأكيد آخر على حرية الاختيار والإرادة التي حظي بها أجدادهم منذ تلك الفترة التاريخية.

٣- سهولة العقيدة الإسلامية وعدم تعقيدها، ومواءمتها للفطرة السوية مما يجعلها مقبولة للنفس والعقل، يقول أرنولد عن عوامل نجاح الدعوة الإسلامية: (في مقدمة هذه الأسباب بساطة العقيدة الإسلامية، لا إله إلا الله محمد رسول الله.. إن هذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان، ولا تثير في العادة مصاعب عقلية خاصة، وإنها لتدخل في نطاق أحط دركات الفهم والفطنة، ولما كانت خالية من المخارج والجمل النظرية اللاهوتية كان من الممكن أن يشرحها أي فرد، حتى أقل الناس خبرة بالعبارات الدينية النظرية) (٣).

وهذه الإشارة إلى بساطة العقيدة الإسلامية قد لا يدرك تأثيرها من نشأ في العقيدة الإسلامية ولم يختلط بذهنه غيرها، إلا أن بساطة العقيدة ومواءمتها للفطرة له أثر قوي وفعال حينما تُعرض هذه العقيدة على من نشأ في ديانة ذات تعقيد في بنيتها، أو لها ارتباط بمتناقضات ذهنية، مما يجعل التحول لهذه العقيدة السهلة منفذا روحيا وعقليا، لذلك كان من الأسس التي بُني عليها الإسلام في تشريعه ومعتقداته اليسر والسهولة، يقول النبي ﷺ: (إن الدين يسر، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه) (٤)، يقول ابن عاشور بعد أن ساق هذا الحديث: (وقد ظهر للسماحة أثر عظيم في انتشار الشريعة وطول دوامها، فعلم أن اليسر من الفطرة، لأن في فطرة الناس حب الرفق) (٥).

٤- الاندماج السلمي في مجتمع المسلمين والاختلاط بهم، إذ يرى أرنولد أن اختلاط غير المسلمين بالمسلمين واندماجهم في المجتمع الإسلامي كان سببا من أسباب انتشار الإسلام، ويضرب أمثلة تاريخية على ذلك، فيقول: (بادرت بنو تغلب فأرسلت وفدا إلى النبي ﷺ في سنة ٩هـ، واعتنق هذا الوفد الذين كانوا يدينون بالوثنية الدين الإسلامي، وعقد النبي ﷺ مع المسيحيين منهم معاهدة سمح لهم فيها بأن يحتفظوا بدينهم القديم.. وقد حرّم الخليفة عمر استخدام أية وسيلة من وسائل الضغط عليهم عندما أظهروا أنهم لا يرغبون في ترك دينهم القديم، وأمر بترك الحرية لهم في إقامة شعائرهم الدينية..).

١ - يوهن لودفيك بركهاردت Johann Ludwig Burckhart (١٧٨٤-١٨١٧م) مستشرق ورحالة سويسري زار العديد من البلدان الشرقية، وله عدة رحلات مطبوعة، انظر: الزركلي، الأعلام (٢٦٤/٨) دار العلم للملايين ببيروت ١٩٨٩م، الطبعة الثامنة.

٢ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٦٩ "مرجع سابق".

٣ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٥٤.

٤ - رواه البخاري في كتاب الإيمان باب (٢٩) الدين يسر، حديث ٣٩، ص ٢٣ "مرجع سابق".

٥ - ابن عاشور، مقاصد الشريعة، ص ٢٠٨، دار لبنان للطباعة والنشر ببيروت ١٤٣٢هـ، الطبعة الثانية.

أما فيما يتعلق بالسواد الأعظم من هؤلاء المسيحيين فإن الأخبار الخاصة بزوال المسيحية من بين القبائل العربية النصرانية التي كانت تُقيم في بلاد العرب الشمالية لا تزال بحاجة إلى شيء من التفصيل، والظاهر أنهم قد انتهوا إلى الامتزاج بالمجتمع الإسلامي الذي كان يُحيط بهم عن طريق ما يُسمونه (الاندماج السلمي) الذي تم بطريقة لم يحسها أحد منهم، ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم في الإسلام بالقوة عندما انضوا بادية الأمر تحت لواء الحكم الإسلامي لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرائهم (١)، فبعيدا عن الدعوة بالحسنى وبعيدا عن المعاملة الحسنة والنتائج التي أسفرت عنهما في انتشار الإسلام، يرى أرنولد أن الاندماج السلمي كان أيضا عاملا مهما في سبيل انتشار الإسلام.

والاندماج السلمي كما يعرفه الباحثون هو: (الانخراط في صيرورة المجتمع العالمي في إطار من التفاهم وتبادل الثقافة وتقبل الآخر دون ازدراء أو كراهية) (٢)، والاندماج له دور كبير في انتشار الأفكار وترويجها بين الناس، خاصة عندما تكون القدوة والمثل الأعلى هي المصدر لهذه الأفكار، وهذا ما تحدث عنه علماء الاجتماع قديما، يقول ابن خلدون: (المغلوب مولع أبدا بالافتداء بالغالب في شعاره وزيه ونخلته وسائر أمره وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه..، وذلك هو الافتداء، أو لما تراه من أن غلب الغالب لها ليس بعصية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحله من العوائد والمذاهب) (٣)، ونستطيع أن نخلص من ذلك إلى أن (الاندماج السلمي) هو نتيجة لفاعلية التعايش الذي ازدهر في المجتمع المسلم.

٥- الصلح والهدنة التي وقعت بين المسلمين وغير المسلمين ودور ذلك الفاعل في انتشار الإسلام، فيرى أرنولد أن ما وقع بين المسلمين وغيرهم من معاهدات الصلح كان فرصة عظيمة مكّنت للكثير من غير المسلمين من معرفة الإسلام ومن ثم اتباعه، ويتحدث أرنولد بشكل خاص عن صلح الحديبية وكيف كان سببا في انتشار واسع للإسلام، فيقول: (لما جعل صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة الصلات الودية مع أهل مكة أمرا ممكنا، خرج إلى المدينة لاعتناق الإسلام كثيرون من أصحاب هذا البلد الذين كانت قد أُتيحت لهم فرصة الاستماع لدعوة محمد [ﷺ] في مستهل بعثته، ومن هؤلاء رجال من ذوي النفوذ والسلطان.. هذه الهدنة قد جعلت الاتصال مع بلاد العرب الجنوبية أمرا ميسورا في ذلك الحين..

وفي السنة السابعة للهجرة دخل خمس عشرة قبيلة في طاعة النبي [ﷺ] ثم تمت الغلبة للإسلام بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة..

وفي السنة التاسعة للهجرة وفد على النبي [ﷺ] ثلاثة عشر رجلا من بني كلاب، وهم فرع من بني عامر بن صعصعة، وأخبروه أن أحد صحابته وهو الضحاك ابن سفيان قد سار فيهم بالقرآن وسنة الرسول

١ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٦٧ "مرجع سابق".

وانظر في قصة وفد تغلب: ابن كثير، البداية والنهاية (٧٣/٥) "مرجع سابق".

وانظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى (٥٥/١) دار التحرير بالقاهرة ١٣٨٨هـ، الطبعة الأولى.

٢ - د. محمود عبدالمجيد عساف، في مقال له بعنوان: الاندماج السلمي في عالم متنوع، صحيفة دنيا الوطن الفلسطينية، ٢٥/٩/٢٠١٩م.

٣ - ابن خلدون، المقدمة (٥١٠/٢) دار نهضة مصر ١٤٠١هـ، الطبعة الثالثة

[١] وأن قومهم قد استجابوا بدعوته للدين الجديد، كذلك أسلم فرع آخر من القبيلة نفسها وهم بنو رؤاس بن كلاب على يد واحد منهم يقال له عمرو بن مالك وكان في المدينة واعتنق الإسلام ثم عاد إلى عشيرته وحضهم على الاقتداء به..

وكانت تُسمى هذه السنة التاسعة للهجرة بعام الوفود، لأن عددا كبيرا من القبائل العربية وأهالي المدن أرسلوا إلى النبي [ﷺ] وفادات تعلن خضوعها وتسليمها..

وهكذا اضطرت القبائل العربية إلى أن تدعن للنبي [ﷺ] لا لمجرد أنه رئيس لأقوى قوة عسكرية في بلاد العرب، بل لأنه رمز لمذهب حياة اجتماعية كان يجعل كل خارج عليه ضعيفا عديم التأثير.. وبهذه الطريقة كان الإسلام يُوجد بين عشائر كانت حتى ذلك الحين في نزاع مستمر بعضها مع بعض (١). فاستقرأ أرنولد أحداث السيرة، وتوغل في أعماقها، وربط الأسباب بمسبباتها، وكيف دخلت أقوام في الإسلام بعد الصلح، ثم كيف كان هذا الصلح سببا لوقوع الفتح بعد ذلك، وما تلا الفتح من قدوم الوفود وما أسفرت عنه هذه الوفود من انتشار واسع للإسلام، وانتهى بعد ذلك إلى تبين الدور الكبير الذي شكله هذا الصلح الذي كان سببا لفتح مكة وما تلاه من انتشار واسع لهذا الدين الجديد، وقد نقل ابن هشام صاحب السيرة قول الزهري رحمه الله عن هذا الصلح: (فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووُضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر) (٢)، وقد سمى الله عز وجل هذا الصلح فتحا في كتابه الكريم ﴿ إِنَّا

فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ ﴾ [سورة الفتح الآية ١] (٣).

وما استطاع أرنولد فهمه وإدراكه من نتائج صلح الحديبية، وكيف كان فتحا عظيما من خلال الجموع التي دخلت الإسلام أفواجا لا يُعد كشفا جديدا أو ريادة في الاستنباط التاريخي، لكن الجديد فيما قدمه أرنولد هو إعلانه لذلك في داخل الدائرة الاستشرافية، والتي لم تألف مثل هذا الطرح أو على الأقل لا تُروج له، بل يتعارض تماما مع الطرح السائد بربط انتشار الإسلام مع تسلط السيف.

٦- حالة الظلم والاضطهاد التي هيمنت على المناطق التي استقبلت الفتوحات الإسلامية، مما جعل الناس يتطلعون إلى الإسلام كمُخلص أو طوق نجاة، يقول أرنولد واصفا نتائج ما عمله هرقل في الإمبراطورية الرومانية -التي كانت تحكم بلاد الشام- من أعمال أثارت الجدل والحنق بين الطوائف المسيحية وأدخلها في نزاعات وتناحر شديد: (ولكي نستطيع أن نُقدر حالة هؤلاء البدو

١ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٥٦ "مرجع سابق".

وانظر في صلح الحديبية وما تلاه من انتشار واسع للإسلام: ابن هشام، السيرة النبوية (٤٠٣/٣) مكتبة الجمهورية بمصر دون الإشارة لتاريخ نشر.

وانظر أيضا فيما كان من أمر الوفود: ابن كثير، البداية والنهاية (٣٢/٥) "مرجع سابق".

٢ - ابن هشام، السيرة النبوية (٤٢٥/٣) "مرجع سابق".

٣ - يقول ابن كثير: (نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٨٢/٤) "مرجع سابق".

الذين عاشوا في ظل الحكم الإسلامي تقديرا كاملا ونقف على قيمة المؤثرات التي أدت إلى تحول الناس إلى الإسلام من حين إلى حين، يحسن بنا أن نجتزئ بالإشارة إلى حالتهم في ظل الحكم المسيحي في عهد الدولة البيزنطية...

والواقع أن الشعور الذي أثاره هذا الإمبراطور [هرقل] قد بلغ من المراهة مبلغا يبرر الاعتقاد بأنه حتى السواد الأعظم من الأرثوذكس من رعايا الدولة البيزنطية الذين كانوا يقيمون في البلاد المفتوحة في عهد هذا الإمبراطور هم الذين رحبوا بالعرب، وقد نظروا إلى الإمبراطور نظرة الكراهية باعتباره خارجا عن الدين، وكانوا يخشون أن يأخذ في اضطهادهم وإرغامهم على القول بوحدة مشيئة المسيح، ومن أجل هذا استقبلوا بالرضا بل بالحماسة هؤلاء الساسة الجدد الذين وعدوهم بالتسامح الديني، وأظهروا رغبتهم في تسوية مركزهم الديني واستقلالهم القومي لو أنهم استطاعوا أن يُخَلِّصُوا أنفسهم من الخطر العاجل الذي كان يحدق بهم) (١).

ويورد أرنولد شهادات من أقوال أهالي تلك المناطق لتبرهن عن قرب بما كان يشعره ويعيشه الناس من ظلم واضطهاد، ورأوا في الإسلام المُخْلِص من هذا الظلم، فيقول: (ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن، وعسكر أبو عبيدة في فحل (٢)، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب، يقولون: يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا ومنازلنا، وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم) (٣).

كما يرى أرنولد أن الحالة في مصر قبل فتح المسلمين لها لم تكن بعيدة عن حال بلاد الشام، فيقول: (ويرجع النجاح السريع الذي أحرزه غزاة العرب قبل كل شيء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي لما عُرف به من الإدارة الظالمة، ولما أضمره من حقد مرير على علماء اللاهوت، فإن اليعاقبة الذين كانوا السواد الأعظم من السكان المحليين قد عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسي التابعين للبلط الذين ألقوا في قلوبهم بذور السخط والحقد..

كان بعضهم يُعذَّب ثم يُلقى بهم في اليم، وتبع كثير منهم بطريقهم إلى المنفى لينجوا من أيدي مضطهديهم، وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الحقيقية، وقد جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها من قبل ذلك بقرن من الزمان، وقد تركهم عمرو أحرارا على أن يدفعوا الجزية، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، وخلصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذي أثوا من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني، ولم يضع عمرو يده على شيء من الكنائس، ولم يرتكب عملا من أعمال السلب والنهب) (٤).

وقد رجع أرنولد في كل ما ذكره عن أحوال أهالي الشام ومصر قبل الإسلام إلى مصادر تاريخية عربية ككتاب الأزدي (١١٠-١٧٠هـ) فتوح الشام، وكتاب البلاذري (...-٢٧٩هـ) فتوح البلدان، كما نقل عن

١ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٧١ "مرجع سابق".

٢ - فحل هي بلدة بالغور دون دمشق، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٢١/٧) "مرجع سابق".

٣ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٧٣ "مرجع سابق".

٤ - المرجع نفسه، ص ١٢٣.

مصادر غربية أيضا ككتاب المستشرق الألماني يوهان فانسليب Wansleben (١٦٣٥-١٦٧٩م) رحلة لمصر، وكتاب المستشرق الإيطالي كائتاني Caetani (١٢٨٦-١٩٣٥م) تاريخ الإسلام، وكتاب ابن العبري (غريغوريوس) Bar-Hebraeus (١٢٢٦-١٢٨٦) تاريخ مختصر الدول.

ولا شك أن الاضطهاد الذي لقيه أهالي تلك المناطق من الروم كان عامل تأثير في الترحيب بالإسلام وتقبله وفق ما أشارت إليه المصادر التاريخية، إلا أنه لا يقلل من شأن دور الدعوة إلى الإسلام بالحسنى ودور معاملة المسلمين الحسنة وغيرها من العوامل المهمة، إذ لو كان الاضطهاد هو العامل الوحيد أو الأكثر تأثيرا لبقى أهالي تلك البلاد على دينهم تحت حكم المسلمين الذين لم يجبروا أحدا على تغيير معتقده ودينه.

٧- حالة الانقسام الكنسي في الشرق وضعف المسيحية كديانة، وعجزها عن الاستمرار والبقاء، فيرى أرنولد أن انقسام الكنيسة الشرقية، ونزاعات رجال الدين، وشعور عام بالاستياء من الناحية الخلقية والروحية تجاه الكنيسة الشرقية، كان سببا في اتجاه الناس إلى هذا الدين الجديد، يقول أرنولد: (يزعم كثير من علماء اللاهوت المسيحيين أن حالة الكنيسة الشرقية التي تدهورت في ذلك الوقت من الناحيتين الخلقية والروحية لابد أن تكون قد دفعت كثيرين إلى أن يلتمسوا جوا روحيا أسلم وأصح في ذلك الدين الإسلامي الذي جاءهم وهو في أشد ما تكون الحماسة الغضة قوة وعنفا).

[ثم يقول:]: وعلى سبيل المثال يتساءل ملمان Dean Milman (١) "ماذا كانت حال العالم المسيحي في الأقاليم التي تعرضت لأولى غزوات الإسلام، كانت الأحزاب الدينية يناوئ بعضها بعضا، ورجال الكنيسة يتنازعون فيما بينهم على أشد مسائل الدين إبهاما، والأرثوذكس والنساطرة وأتباع أوطيخوس واليعاقبة يضطهد بعضهم بعضا (٢).."، وشبيه بهذا ما يراه كائتاني من أن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحي (٣).

١ - هنري هارت ملمان Henry Hart Milman (١٧٩١-١٨٦٨م) شاعر ومؤرخ للمسيحية له كتاب تاريخ المسيحية اللاتينية، وتاريخ المسيحية، وتاريخ اليهود انظر: فهرس مصادر كتاب أرنولد الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٩٧ "مرجع سابق"، وانظر: مقدمة كتاب ملمان: تاريخ المسيحية، طبع لندن عام ١٩٠٣م.

٢ - انظر في هذه الفرق المسيحية وما تختلف فيه من حيث النشأة والمعتقدات: ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤٩/١) المطبعة الأدبية بمصر ١٣١٧هـ، الطبعة الأولى.

وانظر في الصراعات التي وقعت فيها هذه الفرق، وانقسام الكنيسة إلى كنيسة شرقية وأخرى غربية: د. محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص ١٨٦، دار الفكر العربي ١٣٩٧هـ، الطبعة الخامسة.

٣ - يقصد بالهلينية: الفلسفة اليونانية القديمة حيث يطلق الهيلانيون على العناصر القديمة التي ينتمي إليها اليونانيون القدماء كالدوريين والأيونيين وغيرهم، وكان لهذه الفلسفة تأثير كبير على العقائد المسيحية.

انظر: شارل سنيوبوس، تاريخ الحضارة، تعريب محمد كرد علي، ص ٦٥، مطبعة الظاهر بالقاهرة دون الإشارة لتاريخ طبع.

وانظر في تأثير الفلسفة على العقائد المسيحية في تلك الفترة: د. عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة (١٧٣/٢) المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٤م، الطبعة الأولى.

وانظر أيضا جورج سارتون، تاريخ العلم (٣٧/٥) دار المعارف عام ١٩٩١م.

أما الشرق الذي عُرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة فقد كانت الثقافة الهلينية وبالا عليه من الوجهة الدينية، لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى إلى خلق شعور من اليأس بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء لم تعد المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية..، لم تعد المسيحية قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة (١) إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل، وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتدى في أحضان نبي بلاد العرب (٢).

ثم يعود أرنولد بعد ذلك ليؤكد هذه الرؤية مرة أخرى وينص على أن المسيحية عجزت عن الاستمرار والبقاء لعدم صلاحيتها، فيقول: (سرعة انتشار الإسلام في الأيام الأولى من الاحتلال العربي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام) (٣)، وهو لا يملك الحسم في هذه المسألة -أي مسألة أيِّ العالمين أكثر تأثراً وحسماً- لذلك عبر بقوله: (قد تكون راجعة إلى عجز المسيحية.. أكثر من أن تكون راجعة إلى..)، إذ لم يقدم المؤرخون إحصائية دقيقة لذلك، ولو وجد مستندا تاريخيا يُقدم السبب الذي رجحه لذكره بشكل لا يدع مجالا للشك، وإذا نظرنا إلى بلاد أخرى لم تكن خاضعة للمسيحيين الروم حينها كبلاد فارس وما وراءها، أو بلاد المغرب العربي سنجد أن سرعة وقوة التحول إلى الإسلام هناك لا تقل عن البلاد التي كانت تخضع للمسيحيين الروم فحينها نعلم يقينا ما هو العامل الأكثر تأثيراً دون أن نقع في شك وترجيح كما حصل لأرنولد.

المبحث الثالث: رؤية كل منهما لأحوال غير المسلمين في ظل التعايش الإسلامي

سبق وأن أشرت في بداية المبحث الأول إلى التعايش الإسلامي مع الآخر وفق أصول الإسلام وهدية وتشريعه، وكما طبق ذلك النبي الكريم ﷺ في حياته وسار على ذلك أصحابه من بعده، وسنرى في هذا المبحث كيف قاد منهج كل واحد منهما صاحبه لرؤية تختلف عن رؤية الآخر.

المطلب الأول: رؤية لويس لأحوال غير المسلمين في ظل التعايش الإسلامي

تنطلق المنظومة الفكرية للويس تجاه غير المسلمين في ظل التعايش الإسلامي من رؤيته لعلاقة سببيه مضطرده بين الكفر والقتل في الإسلام، إذ لا يرى لويس لغير المسلم في الإسلام إلا القتل لمجرد الاختلاف العقائدي، وأن غير المسلم لا يملك حقاً وجودياً في الإسلام، ويُركّز على توظيف عناصر محددة لتشكيل فَرَاة من خطر إسلامي يزعّمه، ومن أبرز هذه العناصر التي سعى إلى توظيفها مسألة الكفر ومسألة دار الحرب، ومن يطلع على كتابات لويس المتعلقة بهذه المسائل فإنه يستحضر من ذاكرته كتابات بعض

١ - لم يقدم الإسلام أي امتياز مادي كما يردد كثير من المستشرقين، ولم يوضح أرنولد ما هو هذا الامتياز المادي، في حين أن الإسلام فرض على من يعتنقه زكاة المال الذي بيده، كما فرض عليه تكاليف مادية أخرى ترتبط بأداء فريضة الحج وأداء عبادات أخرى كزكاة الفطر وغيرها.

٢ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٨٩ "مرجع سابق".

٣ - المرجع نفسه، ص ١٢٥.

القسس الأوروبيين أزمنة العصور الوسطى التي انطلقت بدافع الصراع مع الشرق وتشويهه لإثارة حنق الغرب ضد المسلمين، إلا أن تلك الكتابات حينها لم تكن في إطار مناهج البحث والموضوعية والتوثيق العلمي نظرا لِقَدَمَ عهدها وارتباطاتها التاريخية وأعني بذلك الارتباط اللاهوتي الكنسي بتأجيج الحروب الصليبية تلك الفترة، وحينما ظهرت أقسام الدراسات الشرقية في جامعات أوروبا وتطور البحث العلمي سقطت كل تلك الكتابات أمام النقد الغربي قبل أن تسقط أمام الدراسة والبحث في الشرق.

إلا أننا نجد لويس يسلك الكثير من تلك المسالك اللاهوتية القديمة، فنراه يُقدم ادعاءات وافتراسات لا يدعمها بشاهد أو دليل، فضلا عن تعارضها مع أصول الإسلام وهدية وسيرة نبيه ﷺ والحقائق التاريخية.

وسأعرض في هذا المطلب جملة من أقواله التي كثيرا ما ردها في مؤلفاته بعبارات متنوعة، ولن أتعرض للنقد إلا لما دعت إليه الحاجة حتى لا تُشكل على تصور القارئ، وقد سبق الإشارة في المبحث الأول إلى ما قرره الإسلام في التعايش مع الآخر وفق أصوله وتشريعه، وكما طبق ذلك النبي الكريم ﷺ في حياته وسار على ذلك أصحابه من بعده مما يُغني عن بيان وجه الصواب لكثير مما يذكره بلا شاهد أو دليل، والمقصد في هذه الدراسة هو مقارنة تصور غربي بآخر، وليس النقد وتفصيل أدلة الصحة ونحوه.

وسنرى في المطلب التالي تصورا مختلفا لأنرولد عن كثير من المواقف السلبية التي اتخذها لويس ورددها في أكثر مؤلفاته تجاه التعايش في الإسلام وموقف الإسلام تجاه غير المسلم في مجتمع الإسلام.

فالأساس الذي يستند إليه لويس في رؤيته لموقف الإسلام تجاه غير المسلم هو مصادرة حقه الوجودي وأن استمرار بقائه يتعارض مع عقيدة الإسلام، يقول لويس: (إن الأساس الذي تستند إليه فريضة الجهاد هو شمولية الرسالة الإسلامية، إذ أن كلمة الله ورسالة الله مطروحان لصالح أبناء الجنس البشري كله، ولذلك فإن واجب أولئك الناس الذين آمنوا بهما أن يجاهدوا دون توقف لاستجلاب أولئك الناس الذين لما يؤمنوا بهما بعد إلى حظيرة الإيمان بالرسالة الإسلامية، أو السيطرة عليهم على الأقل).

فهذه فريضة لا حدود لها، لا زمانية ولا مكانية، ويجب أن تبقى على قدم وساق إلى أن يقبل العالم بأسره العقيدة الإسلامية أو أن يذعن لسلطة الدولة الإسلامية.

وإلى أن تتحقق تلك الغاية يبقى العالم مقسوما إلى دارين: دار الإسلام حيث يحكم المسلمون وحيث تسود شريعة الإسلام، ودار الحرب التي تتألف من بقية العالم، وبين هاتين الدارين حالة من حالات الحرب الضرورية أخلاقيا والإلزامية شرعيا ودينيا إلى أن ينتصر الإسلام على الكفر انتصاره الحاسم والمحتوم، وبناء على كتب الفقه فإن حالة الحرب هذه يمكن أن تتخللها فترات هدوء وفق مقتضيات المصلحة^(١)،

١ - برنارد لويس، لغة الإسلام السياسي، ص ١٢٢ "مرجع سابق".

ويكرر نفس هذه المقولة بضلالاتها في كتابه: الهويات المتعددة للشرق الأوسط، ترجمة حسن بحري، ص ١٩١، دار البناييع بدمشق عام ٢٠٠٦م، الطبعة الأولى.

ويضيف على ذلك في موضع آخر: (وطبقا للنظرة الإسلامية فإنه بمرور الوقت سوف يُقر الجنس البشري كله الإسلام.. وفي أثناء ذلك الوقت، فإن واجب المسلمين الديني هو النضال حتى تتحقق هذه الغاية) (١).

ويؤكد استمرارية حالة الحرب هذه والرغبة في التمدد بسبب مجرد الاختلاف في المعتقد إلى أن يعتنق جميع البشر رسالة الإسلام، فيقول: (يوجد بين عالم الإسلام وعوالم الكفر حالة حرب دائمة لا مفر منها مبعثها عدم التوافق المذهبي، وستستمر هذه الحرب حتى يقبل العالم كله برسالة الإسلام، أو يخضع لحكم أولئك الذين حملوها) (٢).

كذلك يتسلل لويس إلى الفقه الإسلامي ليجتزئ مصطلحات ومسميات ويوظفها في تقديم معان لا تمثل حقيقتها مستخدما الاجتزاء والبتير وكل ما من شأنه أن يحقق التشويه والتخويف من خطر يزعم وقوعه في أي وقت وحين، فيقول: (والشيء الذي يمت بصلة مباشرة إلى لغة الإسلام السياسي هو ذلك التصنيف الشرعي للأعداء الذين تجدر محاربتهم شرعا، والذين ينضون تحت أربعة أصناف هي: الكافر، وقاطع الطريق، والثائر، والمرتد).

إن الكافر من بين هذه الأصناف الأربعة هو الأهم بكثير، ولكنه على هذا القدر من الأهمية لا من زاوية عملية، بل من زاوية مبدئية على الدوام، فهو وحده الذي يجب شن الجهاد الأمثل عليه، وهو وحده محور الاهتمام الرئيسي لدى الفقهاء والمؤرخين معا في بحثهم موضوع العلاقات مع الأجنبي والدخيل والعدو، علاوة على أنه يشكل قسما من دار الحرب، ويوصف بالحربي وهي الصفة المشتقة من كلمة الحرب...

فالعلاقة الطبيعية والدائمة بين عالم الإسلام وعالم الكفار كانت استنادا إلى رأي الفقهاء، إما علاقة حرب مكشوفة أو حرب كامنة، ولذلك فما كان من الممكن قيام سلم ولا تفاوض، وإنما كان من الممكن قيام الهدنات والاتفاقات التي وجد الفقهاء لها سوابق حتى في القرآن (٣).

وبعد أن أبان عن رؤيته عن التعايش الإسلامي من الجانب التشريعي والفقهية، نراه يسعى إلى صياغة وافتعال واقع عملي لهذه الرؤية في زمن النبي ﷺ وصحابته بتفسير أحداث على غير حقيقتها، أو اطلاق أحكام عامة لا تستند إلى شاهد أو دليل، فيقول: (إن تاريخ العلاقات بين الدولة الإسلامية من جهة وبين رعاياها من غير المسلمين، وبالتالي بينها وبين جيرانها من جهة ثانية، هذا التاريخ بدأ مع رسالة النبي محمد ﷺ)، ويُقص علينا القرآن الكريم كما تورد الأخبار الموروثة عن الإسلام كيفية تعامل النبي محمد ﷺ مع يهود المدينة المنورة ويهود شمال الحجاز، ومع نصارى نجران في الجنوب وبعض النصارى في الشمال، ومع الوثنيين الذين كانوا يشكلون أكثرية سكان شبه الجزيرة العربية، فالخيار بالنسبة إلى الوثنيين كان واضحا: الإسلام أو الموت، وبالنسبة إلى اليهود والنصارى أصحاب ما كان معترفا به كديانتين موحى بهما، كان الخيار يتضمن شرطا ثالثا: الإسلام أو القتل أو الخضوع، وقد يُستبدل القتل

١ - برنارد لويس، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ترجمة د.ماهر عبدالقادر محمد، ص ٧١، المكتبة الأكاديمية بالقاهرة ١٩٩٦م، الطبعة الأولى.

٢ - برنارد لويس، اليهود في ظل الإسلام، ص ٣٠ "مرجع سابق".

٣ - برنارد لويس، لغة الإسلام السياسي، ص ١٢٨ "مرجع سابق".

بالعبودية (١)، وكل ما ذكره جعله تحت عنوان مُضِلِّل: (كيفية تعامل النبي محمد ﷺ) حيث لم يُشر إلى الأسباب التي دفعته لقتالهم أو اضطرتهم إلى ردع حاسم، سواء ما كان من صد عدوان أو دفع غدر، أو ردا لنبذ عهد ونحوه مما أوضحت السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي تفاصيله ودوافعه، ولم يُشير إلى أن ذلك حق مشروع في جميع الأعراف والنظم القديمة والحديثة لحماية مجتمعاتها من التعدي، ولرفع الظلم، وبهذه الطريقة من وضع الوقائع في غير سياقها الصحيح وبمنهجية استبعدت ذكر الأدلة والشواهد استطاع لويس تغيير الصورة الحقيقية لما بذله النبي ﷺ وصحابته من صبر وتضحيات وتحمل للأذى إلى صورة المعتدي الذي لا يتعامل إلا بالقتل والإخضاع.

وهذا التكريس المستمر الذي كثيرا ما يردده لويس هو بمثابة رسالة حملها لويس على عاتقه فنجده يردد معناها ومضمونها في أكثر كتبه وفي كل ما له صلة بموضوع الشرق ونشأة دين الإسلام فيه (٢).

وما ذكره لويس من تصنيف الإسلام للعالم بأنه إما دار إسلام وهي التي يحكمها المسلمون، وإما دار حرب وهي بقية العالم، ولا شيء آخر غير ذلك، هو تشويه وتزوير للإسلام لتعزيز وهم الصراع الوجودي الدائم بين الإسلام والغرب أو بعبارة أخرى "الشيطنة الإسلام"، فدار الحرب وردت في الفقه الإسلامي كمصطلح لا لتعطي مفهوما أيديولوجيا يُتيح للمسلمين قتال غيرهم دونما سبب غير المخالفة في المعتقد كما يصور لنا لويس، بل إن مصلح دار الحرب حينما يرد في الفقه الإسلامي لا يتعلق بالكفر لمجرد الكفر باعتباره ذنبا يستوجب الحرب، وإلا لأصبح مخالفا لنص القرآن الكريم، يقول تبارك وتعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾

[سورة البقرة من الآية ١٩٠]، وقوله سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة من الآية ٢٥٦].

وإنما يتعلق هذا التوصيف (دار الحرب) بتحقيق وقوع العدوان أو الخوف من وقوعه حتى يتم رده ومحاربته ضمن إطار زمني استوجب هذا التوصيف في وقته، ويزول التوصيف بزوال موجب، فإذا حصل عدوان من بلد تجاه المسلمين فإنه وفقا لما ورد في الفقه الإسلامي تُوصَف هذه البلد المعتدية أو التي تُمثل خطرا حقيقيا بدار الحرب لسبب وقوع الاعتداء، لا لمجرد مخالفة المعتقد، يقول الإمام الكاساني رحمه الله: (إن المقصود من إضافة الدار إلى الإسلام والكفر ليس هو عين الإسلام والكفر، وإنما المقصود هو الأمن والخوف.. والأحكام مبنية على الأمان والخوف لا على الإسلام والكفر) (٣)، وإننا نجد أن القرآن الكريم يوجه القتال ضد المعتدي من المسلمين أنفسهم، يقول تبارك وتعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله) [سورة الحجرات من الآية ٩].

١ - برنارد لويس، اليهود في ظل الإسلام، ص ١٧ "مرجع سابق".

٢ - انظر: برنارد لويس، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ص ٣٢٨ "مرجع سابق".

٣ - الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (٥١٩/٩) دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م، الطبعة الثانية.

كما أن التصنيف لدار الإسلام ودار الحرب إنما استخدمه الفقهاء لاعتبارات محددة تتمثل في استمرار الحروب والقتال تجاه المسلمين من قبل أعدائهم كأصل في فترة تاريخية معينة، فهو توصيف للواقع لا إخبار عن حكم المشرع، بدليل عدم وجود هذا التوصيف في نصوص الشريعة، وعدم استعمال النبي ﷺ له، يقول د. محمد أبو زهرة: (الفقهاء يقسمون الديار إلى ثلاثة أقسام: دار الإسلام.. والقسم الثاني دار معاهدة، والقسم الثالث دار حرب).

وإن هذا التقسيم هو بحكم الواقع، لا بحكم الشرع، ذلك أن الإسلام بعد أن ظهر وانتشر وقاتل المؤمنون الأولون من اعتدى عليهم واستخلصوا الشعوب من الملوك الذين أُرهِقوهم واستبدوا بهم، أخذ الملوك في أقصى الأرض وأدناها يتأهبون للاعتداء على المسلمين، إذ أن أولئك الملوك أخذوا ينظرون إلى هذا الدين نظرة عداوة لأنه يحرر الشعوب ويحمي الحريات، ويقرر المساواة، وتلك حقائق لا تتفق مع الملكية المطلقة التي كانت سائدة في هذه الأزمان، فنزع الملوك جميعاً عن قوس واحدة وأخذوا يقاتلون المسلمين أينما كانوا وحيثما تُقَفَّوا، فكان لابد أن يُقاتِلهم المسلمون سيرا على مبدأ القرآن المقرر: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى

عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [سورة البقرة من الآية ١٩٤].

وإن ذلك لا يخالف الأصل المقرر الثابت، وهو أن القتال في الإسلام الأصل فيه التحريم حتى يقوم سببه، وهو الاعتداء.. وبذلك وُجد نوع آخر من الدفاع وهو المبادرة بالهجوم قبل أن يُهاجم عدوهم الذي يترصد بهم الدوائر.. والإسلام يُبيحه ولا يمنعه، ذلك أن القرآن يأمر المؤمنين بأن يأخذوا حذرهم دائماً إذ جاء فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [سورة النساء من الآية ٧١] (١).

وإذا كان لهذا التوصيف أو التقسيم اعتباره في زمن وظروف معينة، ففي العصر الحاضر دخلت جميع دول العالم المسلمة وغير المسلمة في موادة وسلم عالمي وفق اتفاقات دولية، ووفق ما قررت منظمات دولية كهيئة الأمم المتحدة والميثاق الذي صدر عنها، وأي اعتداء يحصل من دولة تجاه أخرى مما يمثل خرقاً لهذه المواثيق فإن المسلمين وغيرهم يدينون هذا الاعتداء لذاته، بغض النظر عن معتقد وديانة المعتدي، والأصل في ذلك عند المسلمين قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة من الآية ١٩٠].

والمستغرب في حديث لويس هو اجتزاؤه الانتقائي لمصطلحات دون غيرها، فكما تحدث في حديثه السابق عن مصطلح "دار الحرب" كان من المفترض والأمانة العلمية أن يذكر ما ذكره الفقه الإسلامي من وجود دار للموادة والهدنة لكن غرضيته دفعته إلى أن يصور التعايش في الإسلام بتلك الصورة المرعبة التي تقتصر على القبول بالإسلام أو التعرض لسلاحه ولا خيار آخر، بينما تحدث الفقه الإسلامي عن الموادة

١ - محمد أبو زهرة، نظرية الحرب في الإسلام، ص ٤٣، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف المصرية ١٤٢٩ هـ، الطبعة الثانية.

والهدنة والسلم مع غير المسلمين بشكل واسع وفقا لأصول التشريع، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَأَن جَنَحُواْ لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [سورة الأنفال من الآية ٦١] وقد وادع النبي ﷺ اليهود، كما وادع النصارى وغيرهم (١).

وبعد أن قدم لويس في حديثه السابق صورة التعايش في الإسلام بأنها إما دار إسلام أو دار حرب، أي إما خضوع أو قتل، وتغافل عما في أصول الإسلام وتاريخه من المهادنة والصلح والسلام، نجده في مواطن أخرى يعرض لهذه لمصطلحات -السلم والصلح ونحوها- لكن على غير حقيقتها ومكانتها في الإسلام، بل بما يقلل من شأنها أو يشعر بقلّة جدواها، يقول: (إن مصطلح الصلح هذا يتجلى على أوضح ما يكون في الأعراف العشائرية البدوية كي يدل على تسوية قبلية..

إن أكثر الكلمات العربية شيوعا للدلالة على السلم هي كلمة "السلام" مع التذكير بأنها الكلمة المشهورة على أوسع نطاق في العديد من اللغات الأخرى، وترد هذه الكلمة مرارا في القرآن، كما أنها تتجلى على أوضح ما يكون في المحادثات اليومية في كل اللغات الإسلامية عمليا، ولكن من غرائب الأمور ألا تكون تداعياتها سياسية (٢)، أي أنها مجرد عبارات مجاملة للترحيب، ولا تمثل أرضية مشتركة للمسلمين في التعامل مع الآخر، في حين أننا نجد ذكرها يتردد في القرآن الكريم بما يدل على التفضيل والمكانة العالية، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [سورة النساء من الآية ١٢٨]، ويقول سبحانه: ﴿وَأَن جَنَحُواْ لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [سورة الأنفال من الآية ٦١]، وقد وقعت العديد من

معاهدات الصلح والسلم زمن النبي ﷺ وزمن خلفائه وأزمته من جاء بعدهم، مما هو معلوم في التاريخ الإسلامي، وكان لها عظيم المكانة والأثر على المسلمين وغيرهم، ومن أشهرها صلح الحديبية الذي ذكره القرآن الكريم وكان سببا رئيسا في انتشار الإسلام في الجزيرة العربية (٣).

وفي مقابل التهميش لمصطلحات السلم والصلح ونحوها، يشير إلى ظهور وشيوع مصطلحات أخرى تعكس حالة من الظلم صاحبت انتشار الإسلام، يقول لويس: (خلال الحروب الدينية والسياسية التي شهدتها أوائل عصور التاريخ الإسلامي صارت الشرعية مسألة ملحة جدا، علاوة على أن مفهومي الاغتصاب والطغيان وجدا لهما تعابير شتى في الأحاديث السياسية الإسلامية) (٤).

١ - تقدم بيان ذلك في المبحث الأول، ص ١٠، وللتوسع في بيان ما ذكره الفقهاء حول المواعدة والهدنة، انظر: ابن قدامة، المغني (٤٥٩/٨) مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة، دون الإشارة لتاريخ نسخ، وانظر: الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (٤٢٠/٩) "مرجع سابق".

٢ - برنارد لويس، لغة الإسلام السياسي، ص ١٣٠ "مرجع سابق".

٣ - تقدم الحديث عن صلح الحديبية وأثره في انتشار الإسلام في المبحث الثاني، ص ٣٦-٣٧.

٤ - برنارد لويس، لغة الإسلام السياسي، ص ١٥٥ "مرجع سابق".

ولا يغفل لويس أيضا عن رفع مستوى الفرع من الخطر الإسلامي ليشمل غير أهل الكتاب، حتى يكون الخطر المزعوم عالميا ويشمل العالم بأسره، فيؤكد على أن من لم يكن من أهل الكتب السماوية فإنه محروم من التسامح الإسلامي حرمانا مطلقا، وليس أمامه خيار غير الدخول في الإسلام أو القتل، يقول: (من يتبعون ديننا غير مصنف كدين شرعي، أي ليس لديهم كتاب مقدس معترف به، لا يحظون بتسامح الدولة الإسلامية، فخيرهم هو الاهتداء أو الموت، ويُمكن أن يستبدل بالاسترقاق) (١)، في حين أنه قد ثبت في السنة أن النبي ﷺ تعامل مع المشركين الذين ليس لهم كتاب، فاشترى منهم كما في حديث عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ ثم جاء رجل مشرك مُشْعَان طویل بغنم يسوقها، فقال النبي ﷺ: (بيعا أم عطية؟ -أو قال- أم هبة؟ قال: لا، بل بيع، فاشترى منه شاة) (٢)، فجواز التعامل معهم يُثبت لهم اعتبارهم واعتبار حقوقهم وتقديرهم، كما أن النبي ﷺ عقد الصلح مع مجوس البحرين على الجزية (٣)، وكذلك عمر رضي الله عنه عقد صلحا مع مجوس فارس بعد أن شهد له عبدالرحمن بن عوف عندما قال: (أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب) (٤)، بل إن صلح الحديبية نفسه كان مع قوم مشركين يعبدون الأصنام ولا يتبعون كتابا سماويا.

وفي إطار متابعة حديث لويس عن أحوال غير المسلمين في المجتمع الإسلامي نجد لويس كثيرا ما يجر الحديث إلى مسألة الجزية وأحكامها ويعرضها بصورة مشوهة لا تمثل حقيقتها، فلا يذكرها لويس في إطار الصلح كما هو حالها في الفقه الإسلامي وحالها أيضا في التاريخ الإسلامي، وإنما يعرضها في قالب مزيف حتى يستكمل تشويه كل وجه من أوجه التعايش الإسلامي مع الآخر، يقول لويس: (كانت العقوبة الحقيقية الاقتصادية الوحيدة التي تُوقع على أهل الذمة هي العقوبة المالية الأميرية، فكان على هؤلاء أن يدفعوا ضرائب أعلى، وهذا نظام تحيز موروث عن الإمبراطوريتين السابقتين الإيرانية والبيزنطية، وهناك آراء متباينة فيما بين الباحثين حول مدى الأعباء التي يتحملها الذميون من جراء الزيادة في الضرائب..

وبالنسبة إلى الضريبة الجماعية (ضريبة الرأس) كان الذميون من حيث المبدأ -ولو أن هذا لم يكن ينفذ باستمرار- مُطالبين بدفع أعلى من تلك التي كان يدفعها المسلمون) (٥)، فنجد أنه يصف الجزية بـ: (العقوبة الاقتصادية) وأنها: (نظام تحيز موروث) وأنها: (أعباء يتحملها الذميون)، كل ذلك لرسم صورة من الاضطهاد والظلم تقع على عاتق من يختار التعايش مع المسلمين، وكان من المفترض على لويس لو أراد المسلك العلمي أن يأتي بنصوص تاريخية تؤيد هذا المعنى الذي جنح له، حتى ولو كانت ضعيفة أو

١ - برنارد لويس، الهويات المتعددة للشرق الأوسط، ص ١٨٨ "مرجع سابق".

٢ - رواه البخاري كتاب البيوع باب (٩٩) الشراء والبيع مع المشركين وأهل الحرب، حديث ٢٢١٦، ص ٤٥٦ "مرجع سابق".

٣ - رواه البخاري كتاب (٥٨) الجزية والموادعة، باب (١) الجزية والموادعة حديث (٣١٥٧) ص ٦٦٦ "مرجع سابق". ورواه الإمام مالك في الموطأ، كتاب الزكاة، باب (٢٤) جزية أهل الكتاب والمجوس (٢٧٨/١) دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، دون الإشارة لتاريخ طبع.

٤ - رواه مالك في الموطأ، كتاب الزكاة، باب (٢٤) جزية أهل الكتاب والمجوس (٢٧٨/١) "مرجع سابق".

ورواه البخاري كتاب (٥٨) الجزية والموادعة، باب (١) الجزية والموادعة حديث (٣١٥٧) ص ٦٦٦ "مرجع سابق".

٥ - برنارد لويس، اليهود في ظل الإسلام، ص ٣٦ "مرجع سابق".

حتى مُختلفة، لكنه كال الأوصاف من جعبته وفق ما يُمليه هدفه ورغبته، وسنرى في المبحث التالي نصوصاً تاريخية نقلاً عن كانوا يدفعون الجزية، لكنهم وصفوها على غير ما ذكر لويس!

كذلك يتحدث لويس عن طريقة أخذ الجزية، فيقول: (والكلمات الأربع الأخيرة ﴿﴾ عَنْ يَدٍ وَهُمْ

صَغُرُونَ ﴿﴾ [سورة التوبة من الآية ٢٩].. [إلى أن يقول:] إن ما يعيننا هنا ليس المعنى الأصلي للآية،

بل بالطريقة التي فسّرت بها عبر التاريخ الإسلامي، وليس ثمة تأويل يُذكر حول هذا، فالتفسير المؤلف لهذه الآية إلى أن "الجزية" لم تكن مجرد ضريبة بل كانت أيضاً رمزا يستهدف التبعية.. ومن هذا المنطلق فإن معنى هذه الكلمات هو أن تُؤخذ الجزية بأسلوب استخفافى ومهين (١).

فلم يذكر واقعة أو فعلاً تُبرهن أو تثبت وقوع ما قاله من المهانة والاستخفاف، وإنما نقل قولاً عن بعض المصادر، وقد نُقلت في بعض المصادر الفقهية وكتب التفسير تأويلات مُعينة لتفسير معنى الصَّغار الوارد ذكره في الآية الكريمة التي أشار لها لويس، لكن يظل ما تم نقله من تأويلات هيئة أخذ الجزية وكيفية الأخذ مرتبطاً بقاله ورأيه طالما لم يرد فيه قول أو فعل للنبي ﷺ وصحابته، يقول الإمام النووي رحمه الله بعد أن أورد ما ذكره بعض الفقهاء من هيئة لأخذ الجزية كأن يكون الذمي قائماً والمسلم جالساً، فيقول: (هذه الهيئة المذكورة لا نعلم لها على هذا الوجه أصلاً معتمداً، وإنما ذكرها طائفة من أصحابنا الخراسانيين، وقال جمهور الأصحاب: تُؤخذ الجزية برفق كأخذ الديون، فالصواب الجزم بأن هذه الهيئة باطلة مردودة على من اخترعها، ولم يُنقل أن النبي ﷺ، ولا أحد من الخلفاء الراشدين فعل شيئاً منها مع أخذهم الجزية، وقد قال الرافعي رحمه الله في أول كتاب الجزية: الأصح عند الأصحاب تفسير الصَّغار بالتزام أحكام الإسلام وجريانها عليهم، وقالوا: أشد الصَّغار على المرء أن يُحكم عليه بما لا يعتقده ويُضطر إلى احتماله (٢)، ولو فعل النبي ﷺ أو أحد من خلفائه شيئاً من هذه التأويلات التي يُندد بها لويس لما تأخر عن ذكر تفصيل ذلك والتنديد به، لكنه أبرز ما استطاع جمعه والوقوف عليه حتى ولو كان باطلاً كما ذكر الإمام النووي رحمه الله.

والمستغرب من لويس تقديمه لهذا الرأي في صورة أخذ الجزية، وتركه لما كان عليه العمل الفعلي زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، مع أنه هو من يقول: (ليس من الأمانة الفكرية أو الذهنية أن تقارن نظرية امرئ ما بالممارسات العملية لامرئ آخر، ولا يقل عن ذلك تضليلاً أن يقارن أجود ما لدى شخص ما بأسوأ ما لدى شخص آخر) (٣)، لكن لويس يغير موازين النقد والمقارنة في تعامله مع التعايش في الإسلام وفق ما يرى فيه تحقيق تقديم الصورة التي يرغب تقديمها عن التعايش الإسلامي، في حين أنه اقتراف فعلياً ما وصفه بمناقضة الأمانة الفكرية وأنه تضليل..

١ - المرجع نفسه، ص ٢٢.

٢ - النووي، روضة الطالبين (٣١٥/١٠) المكتب الإسلامي ببيروت ١٤٠٥هـ، الطبعة الثانية.

٣ - برنارد لويس، اليهود في ظل الإسلام، ص ١٣ "مرجع سابق".

ولم يكتف بتقديم هذا الرأي عن الجزية فقط بل عممه بعد ذلك ليكون أساسا ومبدأ لكل ما له علاقة بالتعايش الإسلامي، وأن ليس لغير المسلمين في الإسلام إلا الازدراء والمهانة، يقول لويس: (وبشكل عام كان وضع أهل الذمة مقبولا، لكن غير مُطمئن، إذ كان الإذلال جزءا من النمط المعيشي، فكلمتا القرآن "الذل" و "الذلة" تعنيان التحقير والنبد، وغالبا ما كان الكتاب المسلمون يستعملونهما لتشير إلى المهانة التي كان يُعتقد بأنها مُقدرة على غير المسلمين...، إن الموقف الإسلامي تجاه غير المسلمين لم يكن موقف كراهية أو خوف أو حسد، بل كان ببساطة موقف ازدراء) (١)، ويكرر ويكرس مسألة الازدراء والمهانة بمصطلحات أخرى مختلفة، فيقول: (ولربما كانت الدلالة الأوضح على الانطباع بأن أهل الذمة هم ذوو وضع أكثر تدنيا وتواضعا هو التعامل معهم كعنصر متخلف ووضيع) (٢)، واستخدامه لكلمتي: "الذل" و "الذلة" بوصفهما (كلمتي القرآن) في إطار التعامل مع أهل الذمة إنما هو إفلاس استدلالي، فحينما لم يجد في أصول الإسلام وتعامل النبي ﷺ وصحابته مع غير المسلمين ما يستشف منه الذل والذلة وصفهما بأنهما (كلمتي القرآن) لمجرد ورود ذكرهما فيه، في حين أنهما لم تردا في القرآن الكريم في إطار التعامل مع غير المسلمين، وإنما وصفهما بهذا الوصف حتى يُوصَل لها ثم زجَّ بها في قضية التعايش مع غير المسلمين وأن الكتاب المسلمين استخدموها كمعنى له أصول في القرآن الكريم، وهو تعسف وإحكام في الاستدلال لا يستسيغه المنطق والعقل السليم.

وإذا ما انتقلنا من حديثه عن المسائل التي انتقاها وزيف صورتها سواء حول الجزية أو أهل الذمة أو دار الحرب إلى حديثه عن التسامح في الإسلام مع الآخر بشكل عام نجده يزعم أن التسامح مع الآخر في الإسلام دخيل من ثقافات أخرى، وأن الإسلام في أصوله ومنذ بداية نشأته كان يرفض التسامح مع الآخر من منطلق الاختلاف العقائدي، يقول لويس: (الدعوة إلى التسامح التي نسمع بها كثيرا في هذه الأيام والتي يُنادي بها المدافعون عن المسلمين، ويتبناها حماة الإسلام بشكل أخص، هذه الدعوة هي أيضا جديدة، وهي من أصل هجين، ولم يبدأ بعض المدافعين عن الإسلام إلا في وقت متأخر جدا في التأكيد على أن مجتمعهم كان فيما مضى يمنح غير المسلمين وضعاً قانونياً يتميز بالمساواة..

وواقع الأمر أن المساواة في العهد الإسلامي القديم لم تكن تُحسب على أنها استحقاق، بل كانت تُعتبر إخلالا بالواجب، إذ كيف يمكن لامريء ما أن يقدم نفس المعاملة لأولئك الذين يتبعون العقيدة الصحيحة ولأولئك الذين لفظوها بمحض إرادتهم) (٣).

ثم يطرح لويس تساؤلا: (ما هو مدى التسامح الذي كان الإسلام يتيح في الماضي؟...

ما الذي نعنيه حقا بالتسامح؟ ففي مثل هذه المواضيع يكون هناك ميل نحو التحديد والتقويم من خلال المقارنة، وإذا كنا نتكلم عن التسامح في الإسلام فسرعان ما نجد أنفسنا نقيس التسامح في الإسلام بمقارنة مع التسامح في مجتمعات أخرى في العالم المسيحي، في الهند، في الشرق الأقصى، ولربما في الغرب الحديث، وهذا النوع من المقارنة يكون مُحضراً جدا من قبل خصوم ذوي ملل متنوعة، وطبيعي أن

١ - المرجع نفسه، ص ٤٢.

٢ - المرجع نفسه، ص ٥٢.

٣ - المرجع نفسه، ص ١٠.

يستطيع الخصم تمرير آرائه بسهولة كبيرة من خلال انتقاء أفضل ما يمكن أن يلائمه من شروط المقارنة، مثال ذلك، غالبا ما يكون من السهل بيان تفوق ديانة على أخرى من خلال إظهار نقيض أحد مفاهيم هذه الديانة مع الممارسة العملية في الديانة الأخرى..

واللجوء إلى المقارنة غير ذي جدوى كبيرة، مهما يكن مألوفاً كأسلوب، فقد تكون المقارنة كافية أو مقنعة عاطفياً، ولكن ليس من الأمانة الفكرية أو الذهنية أن تقارن نظرية امرئ ما بالممارسات العملية لامرئ آخر، ولا يقل عن ذلك تضليلاً أن يُقارن أجود ما لدى شخص ما بأسوأ ما لدى شخص آخر، وإن نحن تناولنا محاكم التفتيش الإسبانية أو معسكرات الإعدام الألمانية، من خلال اللجوء إلى المقارنة سيكون من السهل البرهنة على أن كل مجتمع تقريباً هو مجتمع متسامح (١).

ولم يكن لويس في حاجة أصلاً إلى المقارنة حتى يقرر وجود التسامح في الإسلام من عدمه إذ إثبات الفضائل والقيم لا تتطلب مقارنة ليتقرر وجودها من عدمه، وكانت أقل نظرة إلى أصول الإسلام وسيرة نبيه ﷺ وتاريخ خلفائه من بعده كافية لبيان مدى علو قيمة التسامح في الإسلام، لكن لويس لم يشأ طرق هذا الباب لعلمه بما وراءه، بل حتى لو عمل مقارنة جادة بين الإسلام وغيره لتوصل لنفس النتيجة، لكنه وضع العقبات دون ذلك.

وبعد أن قرر لويس عدم جدوى المقارنة نراه يُناقض نفسه ويلجأ إلى المقارنة محاولاً الحط من قيمة التعايش في الإسلام، فيقول: (كيف كان الإسلام يتعامل مع الديانات الأخرى يوم كان هو صاحب السلطة؟ ولنصنع السؤال بمزيد من الدقة: أولئك الذين كانوا يرون أنفسهم أصحاب السلطة والقانون الإسلاميين، كيف كانوا في أزمنة وأماكن مختلفة يعاملون رعاياهم غير المسلمين؟...)

كثيراً ما وُصف الإسلام بأنه دين المساواة، وهو حقاً كذلك في كثير من النواحي.. إذا قارنا العالم الإسلامي وما كان عليه وضعه في العصور الوسطى بما كان عليه وضع المنبوذين أو الدونيين في الهند شرقاً، وبالامتيازات الأرستقراطية المتجذرة في أوروبا المسيحية غرباً فسيبدو الإسلام دين مساواة فعلاً في مجتمع مساواة.

فالإسلام من حيث المبدأ والشرع لا يُقر الدونية كما لا يقر الأرستقراطية.. وكانت التطورات الاجتماعية في الإسلام أعظم بكثير مما كان يُسمح به في أوروبا المسيحية أو الهند الهندوسية كلتيهما.

بيد أن ذلك التساوي في الوضع الاجتماعي وفي تكافؤ الفرص كانا مقيدتين في بعض المجالات المهمة، فمرتبة العضوية الكاملة في المجتمع كانت مقتصرة على الأحرار من المسلمين الذكور، وكان الذين تنقصهم إحدى الصفات الثلاث المطلوبة، وهم: العبد والمرأة والكافر، أناساً غير متساوين، وحالات عدم التساوي الثلاث هذه لم تكن حالات مقبولة ومُعترف بها وحسب، بل مثبتة في الشرع الإسلامي..

أما دونية الكافر.. فباعتناق الإسلام يتحول هذا الكافر إلى عضو في الفئة الاجتماعية المتسيدة وبذلك ينهي وضعه الدوني (٢)، ففي هذه المقارنة يثبت تفوقاً للتعايش الإسلامي على شرق هندوسي وغرب مسيحي،

١ - المرجع نفسه، ص ١٣.

٢ - المرجع نفسه، ص ١٥.

لكنه يستثنى من ذلك غير المسلم في مجتمع الإسلام بسبب كفره الذي وضعه في دونية لا تفارقه إلا بالتخلي عن معتقده والدخول في الإسلام ليكون بذلك من الفئة الاجتماعية المتسيدة، دون أن يوضح وجه الدونية أو وجه السيادة ما هو! وإنما جعلها حالة مصيرية في كل شأن يمس تعايش غير المسلم مع المسلمين داخل مجتمعهم.

ويكرر لويس تبنيه لهذه الدونية لغير المسلم في مقابل السيادة للمسلم دون توضيح أو شاهد يفسر المعنى، فحتى عندما تحدث عن الوثيقة العمرية (١)، تلك الوثيقة التي أمنت أهل بيت المقدس في بلادهم، وأمنتهم على كنائسهم وعلى عبادتهم، وكانت ضمانا لكافة حقوقهم، لم يجد فيها لويس إلا تعزيز (فوارق معينة بين الفئة المتسيدة والفئة التابعة)، فيقول: (ومع أن "ميثاق عمر" كان كثيرا ما يرجع إليه المسلمون والذميون كلاهما، كأساس شرعي للعلاقة بين الطرفين...

وعلى العموم وفي الوقت الذي قد تكون فيه هذه الوثيقة وغيرها من الوثائق المماثلة منتحلة كليا أو جزئيا إلا أنها رغم ذلك تعكس التطور الذي شهده مجرى القرون الأولى من حكم الإسلام، أي تطور سياسة استبقاء فوارق معينة بين الفئة المتسيدة والفئات المتعددة التابعة لها) (٢).

وبعد كل ما سبق بيانه من موقف لويس السلبي من التعايش في الإسلام، يُفاجأ المطالع لمؤلفاته لموقف غريب من لويس لم يُعهد عنه، بل هو مختلف تماما عما سبق الإشارة إليه من مواقف لويس، يقول: (كشف العالم الإسلامي عن تنوع مذهل منذ البداية تقريبا وعلى امتداد ثلاث قارات احتضن مجموعة كبيرة من الأجناس والعقائد والثقافات التي عاشت جنبا إلى جنب في تناغم معقول وإن كان على فترات متقطعة، ولم يكن الصراع الطائفي والاضطهاد الديني مجهولين في التاريخ الإسلامي، لكنهما كانا نادرين ولا نمطيين، ولم تبلغ شدتهما قط مبلغ الحروب والاضطهادات الدينية الكبرى في العالم المسيحي) (٣)، فهنا يصطدم القارئ بأن لويس يقر بوجود تعايش بين عناصر متعددة الأديان والثقافات في ظل الإسلام منذ نشأته دونما صراع أو اضطهاد إلا ما ندر، وهو أمر يخالف تماما خط سير لويس وتوجهاته، لكن القارئ حينما يستكمل مع لويس كلامه لا يستغرب هذا التغير في الموقف، وذلك حينما يجده يفصح عن غرضه من هذا القول، حيث قال بعد ذلك مباشرة: (وبعد، فبرغم كل هذه الصعوبات والعقبات نجد أن المثل الأعلى الديمقراطي يكتسب قوة في المنطقة على نحو مطرد.. فماذا يمكننا القيام به في العالم الديمقراطي لتشجيع التطور الديمقراطي في الشرق الأوسط الإسلامي) (٤)، فهنا يعلم المطالع الغرض من كلامه، وأنه حينما أراد أن يبحث عن حلول ليتمكن من خلالها تطبيق نموذج الديمقراطية الغربية على الشرق الأوسط الإسلامي اضطر إلى ذكر حقيقة التعايش في الإسلام أي ما يعتقده صعوبات وعقبات -على حد تعبيره- فظهر على لسانه موقف مخالف لما يصرح به في المواضع الأخرى عندما لم تكن حينها حاجة لإظهار الحقيقة، بل يراها مساحات للتضليل والتشويه.

١ - تقدم الحديث عن هذه الوثيقة ومدى صحتها في المبحث الأول.

٢ - برنارد لويس، اليهود في ظل الإسلام، ص ٣٤ "مرجع سابق".

٣ - برنارد لويس الإيمان والقوة، ترجمة أشرف كيلاني، ص ٩٢، دار الكتاب العربي بدمشق، ٢٠١٧، الطبعة الأولى.

٤ - المرجع نفسه، ص ٩٢.

المطلب الثاني: رؤية أرنولد لأحوال غير المسلمين في ظل التعايش الإسلامي

إن العلامة الفارقة بين أرنولد ولويس في موضوع التعايش الإسلامي هي استناد أرنولد في كل رأي يذهب إليه على شاهد تاريخي يؤكد رأيه، ثم يعرض هذا الشاهد أمام قارئه، ويستنبط من الشاهد رأيه بشكل مباشر وفق تحليل منطقي ودون تعسف أو اعوجاج في الاستنتاج، فلا يُخرج وصفا من جعبته وإنما مرجعيته هي الشاهد التاريخي، فإن وقع في خطأ -وهو أمر وارد في البحث العلمي- فالسبب إما ضعف في الرواية التاريخية التي استند إليها أو خطأ في الاستنتاج، وهذا المسلك يجعل سالكه في دائرة النزاهة العلمية التي تنتهج القاعدة البحثية (إن كُنْتَ ناقلا فالصحة، أو مدعيا فالدليل) (١).

ولينظر القارئ الكريم كيف استطاع أرنولد في النص التالي أن يأتي بشواهد تاريخية نصية استنبط منها حقيقة موقف غير المسلمين من التسامح والتعايش الإسلامي في زمن فتوح الشام، فاستطاع أن يُوضح كيف كانت رؤية أهالي تلك البلاد نحو التعايش مع المسلمين؟ وهل كانت رؤيتهم رؤية ترحيب بالعدل والسلم، أو رؤية خوف من الاضطهاد والظلم؟ فأتى بأقوال من عاشوا في تلك الفترة من أهل تلك الديار، فهم أصدق من يخبرنا بواقع وحقيقة الأمر، يقول أرنولد: (ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن، وعسكر أبو عبيدة في فحل، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب، يقولون: يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا ومنازلنا، وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم) (٢)، وكان مرجعه التاريخي في هذه النقول (الأزدي، والبلاذري) (٣)، وإذا علمنا أن تاريخ وفاة الأزدي -الذي نقل تلك النصوص والشواهد التاريخية في كتابه (فتوح الشام)- كانت عام ١٧٠ هـ فإننا ندرك القيمة التاريخية لهذه النصوص، ومدى حرص أرنولد على توخي أقرب المصادر التاريخية المتوفرة.

وتنبثق رؤية أرنولد لأحوال غير المسلمين في ظل التسامح الإسلامي من خلال منظوره لعوامل انتشار الإسلام الذي استعرضناه في المبحث السابق، فهو يرى أن الدين الذي جاء سلماً، ولم يحمل الناس قسراً على الدخول فيه، وترك للآخر حرية اعتقاده، قد استمر على نهجه بعد ذلك، وكل ما أثر عن هذا الدين من تقدير للحريات وحماية للممتلكات والحقوق ونبذ للعنف والاضطهاد تجاه الآخر إنما يرجع إلى ذلك القدر من التسامح الذي قدمه ابتداء منذ دخوله مناطق واسعة متعددة الأطياف واليُحَل، فترك لأهالي هذه المناطق حرية الاستمرار على معتقداتهم، ولم يتسلط عليهم بالسيف لخلاف في المعتقد، بل كان سيفه حماية لجميع أطياف تلك المناطق التي دخلها ووقعت تحت سلطانه، يقول أرنولد: (أما ولايات الدولة

١ - انظر: عبدالرحمن حسن الميداني، ضوابط المعرفة وآداب المناظرة، ص ٣٦٥، دار القلم بدمشق ١٤٠٨ هـ، الطبعة الثالثة.

٢ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٧٣ "مرجع سابق".

٣ - ويقصد بهما كتاب فتوح الشام لأبي إسماعيل محمد بن عبدالله الأزدي، وكتاب فتوح البلدان لأحمد بن يحيى البغدادي الشهير بالبلاذري، انظر: الأزدي، فتوح الشام، ص ٩٧، طبع كلكتا عام ١٨٥٤م، وقد نقل النص من هذا الكتاب. وانظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢١، مطبعة الموسوعات بالقاهرة عام ١٣١٩ هـ، الطبعة الأولى.

البيزنطية التي سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم، فقد وَجَدَتْ أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ما شاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية، فقد سُمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد، اللهم إلا إذا استثنينا بعض القيود التي فُرضت عليهم منعا لإثارة احتكاك بين أتباع الديانات المتنافسة، أو إثارة أي تعصب ينشأ عن إظهار الطقوس الدينية في مظهر المفارقة حتى لا يُؤذي ذلك الشعور الإسلامي (١).

ومع اتساع الفتوحات الإسلامية في كل اتجاه، نجد أن ما ذكره أرنولد عن أحوال غير المسلمين في بلاد الشام والعراق لا يختلف عما ذكره عن أحوالهم في مصر مما يدل على أن الأمر ليس مجرد مصادفة، وإنما هو منهج ومسلك تفرضه تعاليم هذا الدين الجديد وبطريقة لم يعهدها التاريخ الإنساني من قبل، فيتحدث أرنولد عن حال أقباط مصر قبل الإسلام وبعد مجيئه فيقول: (ويرجع النجاح السريع الذي أحرزه غزاة العرب قبل كل شيء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي لما عُرف به من الإدارة الظالمة، ولما أضمره من حقد مرير على علماء اللاهوت..

وقد جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان، وقد تركهم عمرو [يقصد عمرو بن العاص فاتح مصر] أحرارا على أن يدفعوا الجزية، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية.. ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملا من أعمال السلب والنهب) (٢).

وبعد أن ذكر ما تمتع به غير المسلمين من حرية المعتقد وممارسة العقائد دون اضطهاد أو تعرض للحقوق والممتلكات، يؤكد وبشكل قاطع بأنه لم يطلع على خبر تاريخي يشير إلى تعرض غير المسلمين إلى اضطهاد حقيقي يستهدف بقاءهم الوجودي وممارستهم لشعائرهم، ويستدل على ذلك باستمرار تواجد الشواهد العينية التي رأى في استمرار بقائها وعدم تعرضها للتخريب أو الهدم دليلا حسيا على سماحة الإسلام وحسن تعامله مع غير المسلمين، فيقول أرنولد: (لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قُصد منه استئصال الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند وإيزابلا دين الإسلام من أسبانيا.. (٣)، ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم) (٤)، فنلاحظ من حديثه هذه المرة أنه انتقل من الحديث عن الأدلة الخبرية التاريخية (لم نسمع) إلى الشواهد الحسية المتمثلة في بقاء الكنائس الشرقية قرونا عديدة دون تعرضها للحرق أو التدمير أو ما شابه ذلك، فهو لم يقتصر على الشواهد الخبرية

١ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٧٤ "مرجع سابق".

٢ - المرجع نفسه، ص ١٢٣.

٣ - هما فرناندو الثاني (١٤٥٢-١٥١٦م) ملك أراغون، وإيزابيل (١٤٥١-١٥٠٤) ملكة قشتالة وليون، وبعد أن تزوجا توحدوا في العمل على طرد المسلمين من إسبانيا، وبعد أن أسقطوا غرناطة قاموا بإجبار مسلمي ويهود إسبانيا على اعتناق المسيحية أو القتل أو الترحيل، كما أقاموا محاكم التفتيش التي طردت أعدادا كبيرة من مسلمي الأندلس. انظر: محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس "العصر الرابع"، ص ١٨٠، مطبعة الخانجي بالقاهرة ١٤١٧هـ، الطبعة الرابعة.

٤ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٩٨ "مرجع سابق".

وإنما ذهب يستنتق ما بقي من آثار تلك الأزمنة وينظر في أحوالها ليصل إلى المعرفة الصحيحة ويقف على الحقيقة.

ويعود أرنولد في أكثر من مناسبة ليؤكد عدم صحة ما توجه له بعض الباحثين -ويشير بذلك إلى الدراسات الاستشراقية- من وقوع اضطهاد ديني أزمنة الفتح الإسلامي تجاه غير المسلمين مستمسكا مرة أخرى بالأدلة الحسية من الكنائس التي لازالت باقية كشاهد على التسامح الإسلامي حيث لم تتعرض لحرق أو تدمير أو أي شكل من أشكال العنف، يقول أرنولد: (تعود بعض الباحثين أن ينسبوا اختفاء المسيحيين من أهالي تلك البلاد إلى اضطهاد الفاتحين المسلمين الذي أملته روح التعصب الديني، ولكن هناك اعتبارات شتى تدفع ما استقر عليه الرأي في هذه المسألة الشائكة، أولها عدم وجود الدليل البين الذي يؤيد مثل هذا الرأي.. وإن بقاء الكنيسة المسيحية الوطنية بعد الفتح العربي أكثر من ثمانية قرون لشاهد على روح التسامح التي استطاعت وحدها أن تجعل مثل هذا البقاء أمرا ممكنا..).

يجدر بنا أن نتبين كيف أن عدد الأهالي المسيحيين في نهاية القرن السابع الميلادي كان لا بد أن يكون قليلا جدا، وهذه حالة تجعل استمرار بقائهم في ظل الحكم الإسلامي أقوى دلالة على انعدام رسائل العنف والإكراه في التحول إلى الإسلام) (١)، ومن يتأمل نص أرنولد هذا يجد فيه روح الباحث عن الحقيقة، حيث يتلمس الدليل في كل ما يمكن أن يقدم معرفة إنسانية صحيحة، فابتدأ بطرح فكرة الاضطهاد المنطلقة من التعصب الديني لما ذكر من عدم وجود دليل بين، ثم انتقل للشاهد الحسي يستنتقه ويفحصه، فلم يجد عليه أي أثر من آثار الاضطهاد التي تدعيها آراء نطقت بلسان التعصب والكرهية، إضافة لما ذكره سابقا من أدلة نقالية تاريخية على لسان أهالي تلك المناطق أزمنة الفتح تؤكد ترحيبهم بالمسلمين وما نعموا به من معاملة حسنة تحت ظل سلطانهم.

ويتنقل أرنولد بين الأدلة التي ترسم صور التعايش الإسلامي مع الآخر، فبعد أن وقف تارة مع الشواهد التاريخية من نصوص أهالي تلك المناطق، وتارة أخرى مع الأدلة الحسية من الكنائس والمباني التاريخية التي رأى في بقاء واستمرار وجودها دليلا ناطقا على ما لقيه غير المسلمين من سماحة وتقدير لحقوقهم الدينية، نراه هذه المرة يقف على الموثائق التاريخية يفتشها ويستقرئ بنودها، فيقول أرنولد: ((ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح -الذي يلفت النظر في تاريخ القرن السابع- من هذه العهود التي أعطاها العرب لأهالي المدن التي استولوا عليها وتعهدوا لهم فيها بحماية أرواحهم وممتلكاتهم وإطلاق الحرية الدينية لهم في مقابل الإذعان ودفع الجزية).

وليس من السهل أن تُستخلص تفاصيل هذه العهود الدقيقة مما أصبح يشوبها من زيادات، وسواء أكانت هذه التفاصيل صحيحة بلفظها أم لم تكن، فهي على جانب من الأهمية من حيث إنها تمثل الرواية التاريخية التي أخذ بها المؤرخون المسلمون في القرن الثاني الهجري -وهي رواية كان من العسر أن تستقر دعائمها لو أن هناك دليلا يقوم على إثبات عكسها).

ولا بأس من أن نورد هنا الشروط التي قيل إن الخليفة عمر بن الخطاب قد وضعها حين سلّم له بيت المقدس: "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبدالله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا يُنتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يُضار أحد منهم" ومما يتفق مع هذه الروح التي تنطوي على حسن معاملة عمر لرعاياه من أصحاب الديانات الأخرى، ما أثار عن عمر من أنه أمر أن يُعطى قوم مجذومون من النصارى من الصدقات وأن يُجرى عليهم القوت (١).

كذلك نراه يتحدث عن أثر أعمق لهذه العهود والمواثيق في نفوس غير المسلمين، فيشير إلى أن الأمان الذي وفرته هذه العهود لغير المسلمين وما حفظته العهود لهم من حقوق وطمأنينة جعلهم يؤازرون المسلمين ويقفون معهم أمام ما واجهوه من أخطار ومحن، إذ وصلت درجة تعايشهم مع المسلمين لأعلى درجات الاندماج والمواطنة المشتركة بمعناها الحديث، يقول أرنولد: (ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام، فمحمد ﷺ نفسه قد عقد حلفاً مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم، ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمن وطمأنينة، وقد وحّد حلف كهذا بين أتباع النبي ﷺ وبين مواطنيهم الذين كانوا يدينون بالوثنية دينهم القديم، والذين تقدم كثير منهم عن طوعية لموازرة المسلمين في حملاتهم الحربية، وأظهروا للحكومة الجديدة نفس روح الولاء التي جعلتهم يقفون بمنأى عن الردة التي رفعت لواء العصيان في كافة أرجاء بلاد العرب على أثر وفاة النبي ﷺ)، وقد زعم بعض الباحثين أن العرب المسيحيين الذين كانوا يخفرون حدود الإمبراطورية البيزنطية الواقعة على أطراف الصحراء، ألقوا بجموعهم مع جيش الفتح الإسلامي حين رفض هرقل دفع الجزية التي تعود إعطاءها إياهم مقابل خدماتهم الحربية التي كانوا يؤدونها باعتبارهم حراساً للحدود.

وفي موقعة الجسر سنة ١٣هـ حين أوشكت الهزيمة المنكرة أن تحل بالعرب، وقد حَصِرُوا بين الفرات والجيش الفارسي، إذا بزعم مسيحي من بني طيء ينضم إلى المثني القائد المسلم ليساعد في الدفاع عن الجسر الذي كان يتألف من القوارب، والذي استطاعوا عن طريقه أن يرددوا ارتداداً منظماً (٢).

ويواصل أرنولد حديثه عن المعاهدات ودورها في التمكين لحياة كريمة وعيش رغيد لغير المسلمين في بلاد الإسلام، فيقول: (وقد بادرت بنو تغلب فأرسلت وفداً إلى النبي ﷺ في سنة ٩هـ واعتنق أفراد هذا

١ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٧٤ "مرجع سابق"، وقد تقدم الحديث عن الوثيقة الغمرية التي ذكرها ومدى صحتها في المبحث الأول، ص ١٣.

وانظر فيما ذكره من إعطاء عمر رضي الله عنه للمجذومين من النصارى من الصدقات وإجراء القوت عليهم: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٦ "مرجع سابق".

٢ - المرجع نفسه، ص ٦٥.

واسم الزعيم المسيحي الذي ذكره هو أبو زبيد الطائي، انظر في أخبار موقعة الجسر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ (١٦٩/٢) المطبعة الأزهرية بالقاهرة عام ١٣٠١هـ، الطبعة الأولى.

الوفد الذين كانوا يدينون بالوثنية الدين الإسلامي، وعقد النبي ﷺ مع المسيحيين منهم معاهدة سمح لهم فيها بأن يحتفظوا بدينهم القديم..

وقد حرم الخليفة عمر استخدام أية وسيلة من وسائل الضغط عليهم عندما أظهروا أنهم لا يرغبون في ترك دينهم القديم، وأمر بترك الحرية لهم في إقامة شعائرهم الدينية على ألا يقفوا في سبيل أي فرد من أفراد قبيلتهم يرغب في التحول إلى الإسلام أو يُعَمِّدوا وليدا ممن أسلم آبائهم (١).

وينتقل أرنولد بين الأدلة والشواهد ليُعبِّرَ منها إلى معرفة دقيقة بأحوال غير المسلمين في ظل الإسلام، ولا يكتفي بعرض ومناقشة أدلة الإثبات، بل ينتقل إلى مناقشة أدلة المعارضين لرأيه في مسألة التعايش الإسلامي، وقد وجد أن مسألة الجزية تحديدا شكلت لدى المعارضين توظيفا لفهم مغلوطة، فأخذ يتحدث عن الجزية وعلة فرضها وعلى من تجب ومتى تسقط، وكأنه في حديثه يخاطب الذين وجدوا في الجزية معاني العقوبة المالية والاضطهاد كلوي، فتجده في حديثه يستخدم عبارة: (ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين كما يريدنا بعض الباحثين على الظن، لونا من ألوان العقاب)، يقول أرنولد: (لكن هذه الجزية كانت من البساطة بحيث لم تكن تُثقل كاهلهم، وذلك إذا لاحظنا أنها أعفتهم من الخدمة العسكرية الإجبارية التي كانت مفروضة على إخوانهم من الرعايا المسلمين..، وكان على هؤلاء الذين يتحولون إلى الإسلام أن يؤدُّوا بدلا من الجزية الصدقات الشرعية، وهي الزكاة التي كانت تُفرض سنويا على معظم أنواع الممتلكات المنقولة والعقارية...

ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين كما يريدنا بعض الباحثين على الظن، لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل النمة، وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين، ولما قدَّم أهل الحيرة المال المتفق عليه، ذكروا صراحة أنهم إنما دفعوا هذه الجزية على شريطة "أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم" وكذلك حدث أن سجّل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله: "فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا"...

وقد فُرضت الجزية كما ذكرنا على القادرين الذكور مقابل الخدمة العسكرية التي كانوا يطالبون بأدائها لو كانوا مسلمين، ومن الواضح أن أي جماعة مسيحية كانت تُعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي، وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة الجراجمة، وهي قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية، سالمت المسلمين وتعهدت أن تكون عوناً لهم وأن تقاتل معهم في مغازيهم، على شريطة ألا تُؤخذ بالجزية، وأن تُعطى نصيبها من الغنائم (٢).

١ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٦٧ "مرجع سابق"، وقد تقدم الحديث عن بني تغلب والصلح معهم في البحث الثاني ص ٣٧.

٢ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٧٧ "مرجع سابق"، وقد نقل خبر الجراجمة عن البلاذري، وأن الذي صالحهم على المشاركة مع الجيش وأن لا يُؤخذوا بالجزية هو حبيب بن مسلمة الفهري المرسل من أبي عبيدة بن الجراح قائد قوات جيوش المسلمين بالشام، انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٦٦ "مرجع سابق".

ففي مقابل الطرح الاستثنائي السلبي نجد أن أرنولد قد عدد من المعاني الإيجابية التي وجدها في الجزية ما يلي:

- كانت من البساطة بحيث لم تكن تثقل كاهل غير المسلمين.
- أعفتهم من الخدمة العسكرية التي كانت مفروضة على المسلمين.
- أنها بدل عن المقابل المادي المفروض على المسلمين في الزكاة.
- يؤكد على أنها ليست عقوبة.
- أنها مقابل الحماية.
- أنها على القادرين الذكور فقط.
- أن المسلمين قبلوا لمن أبدى المشاركة معهم في الجيش أن يُعفى عن الجزية، واستشهد على ذلك بما حصل مع قبيلة الجراجمة المسيحية (١).

كل هذا وغيره مما هو مدون في الفقه الإسلامي من التشريعات التي راعت الرفق بهم، وبذل الحماية لهم مقابل الجزية واعتبار كافة حقوقهم على تفصيل وشروط وأحكام لا يسع المقام لتفاصيلها (٢).

كما أشار أرنولد إلى أنه قد بلغ حد التسامح في الإسلام في أمر الجزية إلى أن من امتنع عن أداء الجزية أنفة واختار أن يدفع كما يدفع المسلمون من الزكاة فإنه قد سُمح له بأداء ما اختاره، يقول: (وقد طُلب إلي بني تغلب أن يدفعوا الجزية، ولكنهم شعروا أن من الإذلال لكبريائهم، والخط من كرامتهم أن يدفعوا ضريبة فُرضت عليهم مقابل حمايتهم وحماية أموالهم، فالتمسوا من الخليفة أن يسمح لهم بأن يُعاملوا معاملة المسلمين في دفع الضرائب، لذلك تراهم يؤدون في مقابل الجزية صدقة أو زكاة مضاعفة) (٣)، والذي صالحهم على أخذ مضاعفة الزكاة هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولم يخالفه أحد من الصحابة (٤)، وجعلها الماوردي أصلاً يقاس عليه لمن أراد المصالحة على مضاعفة الزكاة (٥).

وقبل أن ننتهي من المنافذ التي نفذ إليها أرنولد إلى تصوره لتعايش المسلمين مع غيرهم في ظل الإسلام والأدلة التي نظر فيها، أشير إلى وقوفه وتأمله في دلالة بقاء قوميات ومجتمعات غير مسلمة تحت حماية المسلمين وبين أظهرهم، دون نفيهم أو التأثير عليهم بالضغط والإكراه، واستمرار وجودهم بمعتقداتهم دون تغيير معتقداتهم قروناً ممتدة، مما جعله يرى في ذلك دليلاً وشاهداً على مدى التسامح الإسلامي مع غير المسلم، يقول أرنولد: (وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد

١ - لم يكن ما حصل للجراجمة من الإعفاء عن الجزية لمن أبدى المشاركة في الجيش الواقعة الأولى، وإنما سبقها ما عقده عتبة ابن فرقد عامل عمر بن الخطاب لأهل أذربيجان بأن (من حشّر منهم في سنة - أي شارك مع الجيش - وُضع عنه جزاء تلك السنة) الطبري، تاريخ الأمم والملوك (٢٥٦/٤) "مرجع سابق".

٢ - انظر: ابن القيم، أحكام أهل الذمة ص ٧٩ "مرجع سابق".
وانظر: ابن قدامة، المغني (٤٩٥/٨) "مرجع سابق".

وانظر: النووي، روضة الطالبين (٢٩٧/١٠) "مرجع سابق".

٣ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٦٧ "مرجع سابق".

٤ - انظر: ابن القيم، أحكام أهل الذمة، ص ٢٠٦ "مرجع سابق".

وانظر: ابن قدامة، المغني (٥١٣/٨) "مرجع سابق".

وانظر: النووي، روضة الطالبين (٣١٦/١٠) "مرجع سابق".

٥ - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٥٥ "مرجع سابق".

على هذا التسامح، يقول لايارد Layard إنه صادف مخيما من العرب المسيحيين في مدينة الكرك لا يختلفون عن العرب المسلمين بحال ما، سواء في الزي أو في العادات، وقد أخبر رهبان طور سينا بركهاردت Burckhardt أنه كان لا يزال هناك في القرن الماضي بعض أسر البدو المسيحيين الذين لم يدخلوا في الإسلام وأن آخرهم كانت امرأة عجوزا ماتت سنة ١٧٥٠، ودفنت بحديقة الدير..

ويظهر أن نصارى المدن الكبرى في الولايات الشرقية التابعة للدولة البيزنطية قد ظل أكثرهم على ولائهم لعقيدة آبائهم وأجدادهم التي لا تزال جموع ضخمة منهم^(١).

إلى أن يقول: (ولما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعاتهم أمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني، تمتعوا وخاصة في المدن بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة [بل ويذكر ما هو أوسع من ذلك مع بداية العصر الأموي، فيقول:] وقد توسع معاوية في إلحاق المسيحيين بخدمته.. وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية في بلاط الخليفة، مثل الأخطل وهو عربي نصراني كان شاعرا للبلاط، ومثل أبي القديس يوحنا الدمشقي مستشار الخليفة عبدالملك^(٢)).

لقد تأمل أرنولد في هذه الجماعات من غير المسلمين التي استمرت قرونا عديدة دون أن تقنى أو تُهاجر، وتمسكت ببلادها وبمعتقداتها في نفس الوقت، فرأى في استمرار بقائها -مع توافر البدائل- دليلا قاطعا لا يقبل الشك لمدى التعايش المزدهر الذي كان بينهم وبين المسلمين في المجتمع الإسلامي ودولته.

ولعلي أستطيع أن ألخص للقارئ الكريم مواطن الأدلة التي فتش فيها أرنولد حتى يصل لموقفه الذي أعرب عنه في نقاط:

- ١- مقولات أصحاب الأراضي التي استقبلت الفتوحات، من خلال المصادر التاريخية.
- ٢- الأدلة الحسية من الكنائس والمعابد، واستمرار بقائها دون تعرض لأي شكل من أشكال الاضطهاد من حرق أو تدمير أو نحوه.
- ٣- المواثيق والمعاهدات بين الفاتحين المسلمين وأصحاب الأراضي الذين استقبلوهم، وما هي دلالات بنود هذه المواثيق.
- ٤- الوقوف على حقيقة الغرض من التشريعات والتنظيمات التي تعامل بها المسلمون مع غيرهم، والتي سببت إشكالا في فهم طبيعتها والغرض منها لدى كثير من المستشرقين، كموضوع الجزية.
- ٥- الاستمرار الوجودي المزدهر لقوميات وجماعات غير مسلمة بقيت على معتقداتها إلى اليوم في بلاد المسلمين.

١ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٦٩ "مرجع سابق".

٢ - المرجع نفسه، ص ٨١.

ومن خلال استقرار كل تلك الأدلة المتنوعة يكون أرنولد قد طبق المنهج التاريخي وفق ما وضعه وأسس رواده أنجلوا وسينوبوس من أصول النقد التاريخي (١)، وسار عليها النقاد والباحثون الغربيون بعد ذلك، وإن كانت كثير من أصول هذا العلم معلومة من قبل لدى علماء سابقين، لكنها نُسبت إليهما في الحقول الأكاديمية، والأهم في ذلك أن أرنولد قدم هذه الأدلة وما استنبطه منها لغير المسلم الذي لا يؤمن بالمعتقد الإسلامي حتى يخاطبه بنصوص الشريعة، وإنما من خلال المناهج التي اعتاد عليها.

الخاتمة

لقد صاغ الإسلام منهجا متكاملا للمسلمين للتعايش مع الآخر وضمان استقرار حياة المجتمع الإنساني وتحقيق عمارة الأرض، وكان من سمات هذا المنهج الواقعية والشمول وصلاحيته لكل زمان ومكان، وقد طبقه النبي ﷺ وجعله واقعا ملموسا وقدوة لمن بعده، كما طبقه أصحابه من بعده، فشهد بذلك التاريخ الإنساني نمودجا فريدا لم تشهد الإنسانية من قبل في تعايش أصحاب الديانات المختلفة بمجتمع واحد وبذل التسامح فيما بينهم لتحقيق العيش الكريم والأمن والسلام.

وفي المقابل لم تعرف المجتمعات الإنسانية الأخرى معنى التعايش مع الآخر والتسامح مع المخالف في المعتقد إلا في عصور متأخرة، وبعد جهود كبيرة من قبل مفكرين وعلماء قدموا رؤى مختلفة ومتباينة لطرح نموذج مثالي للتعايش والتسامح، يقول الدكتور عبدالرحمن بدوي: (وأوروبا المسيحية لم تعرف التسامح بنوعيه الديني والسياسي إلا ابتداء من القرن التاسع عشر، بل هي لم تدرك أن التسامح فضيلة إلا ابتداء من القرن السادس عشر، وكان الفضل في ذلك لبعض المفكرين، وعلى رأسهم جان بودان Bodin، ومونتاني Montaigne، واسبينوزا..، روجر وليمز Roger Williams، ملتون Milton، لوك.. (٢).

ولقد اجتهد كل من توماس أرنولد وبرنارد لويس في تقديم قراءة وتحليل للتعايش في الإسلام، وكان لكل منهما منهجه الذي اتبعه في دراسته، لذلك جاءت كل قراءة تختلف عن الأخرى، وقد أوضح هذا البحث عن منهج كل منهما في قراءته للتعايش الإسلامي، كما تناول رؤية كل منهما لمسألة دوافع انتشار الإسلام والتي تعد من أهم القضايا التي يسترعيها الفكر الغربي ويستحضرها لتقييم التعايش الإسلامي، كما تناول البحث رؤية كل منهما لأحوال غير المسلمين في ظل التعايش الإسلامي.

وقد اجتهدت أن أضع القارئ أمام رؤية كل منهما بشكل مباشر، فكانت نصوص كلام كل منهما حاضرة أمامه، حتى لا أعرض للقارئ رأيا ذاتيا مجردا عن أحدهما في بيان تصوره للتعايش الإسلامي، إلا أنني قد واجهت من الصعوبات في تقديم النصوص خاصة مع لويس، مما أجد أهمية للإشارة إليه لارتباطها بفهم طبيعة تناوله للقضية البحثية، ذلك أنه في تناوله لمسألة من مسائل التعايش يتنقل بشكل سريع ومفاجئ ما بين أصل المسألة في الإسلام وما بين مناحي وجودها وتطبيقاتها في فترات تاريخية متفرقة ومتباعدة ومناطق جغرافية متعددة وشاسعة، بشكل انتقائي، وفي نفس الوقت يُوظفها سياسيا، فهو يتعامل مع

١ - انظر: أنجلوا وسينوبوس، المدخل إلى الدراسات التاريخية، ترجمة عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٨١م، الطبعة الرابعة ضمن مجموع بعنوان: النقد التاريخي.

٢ - د. عبدالرحمن بدوي، ملحق موسوعة الفلسفة، ص ٥٩ "مرجع سابق".

المسائل التي يطرحها تعاملًا تاريخيًا وسياسيًا في منحى مشترك، مما يجعل تتبع نصوص أقواله لفكرة تاريخية محددة وبعيدا عن توظيفها السياسي أمرا مُجهدا لكثرة الارتباطات والخلط لديه.

أما هم النتائج التي خلّصت إليها الدراسة فيمكن إجمالها فيما يلي:

- ١- تنوع اتجاهات ومواقف الرؤية الاستشرافية تجاه التعايش في الإسلام، أحد أهم القضايا التي تمس تاريخ التنافس الحضاري بين الشرق والغرب وما ارتبط به من صراعات، وأن النظرة الأحادية تجاه الغرب المبنية على فكر الأنا والآخر والبعيدة عن الدراسة المنهجية، هي بعيدة كل البعد عن الموضوعية وتحكمها العواطف وتُقصي فيها المعرفة الصحيحة.
 - ٢- المكانة العالمية لقضية التعايش في الإسلام، والتي نرى ملامحها وصورتها تتمثل في مدى العمق والاهتمام لدى الشخصيتين الذين تناولهما هذا البحث بالدراسة، فبغض النظر عن رؤية كل منهما ومنهجيته في تصور التعايش في الإسلام، يرى القارئ بكل وضوح مدى سعي ومحاولة كل منهما قراءة الأحداث والوقائع، وتتبع كل ما يرتبط بالسلم والمعاشية في الإسلام والتحليل المتعمق للوصول للنتائج، كل ذلك هو دليل واضح لمدى الاهتمام العالمي لهذه القضية، وأهمية تقديمها للمعرفة الإنسانية.
 - ٣- لا يلزم من الإقرار بتقارب رأي أو وجهة نظر استشرافية أو غربية في مسألة أو قضية مع المفهوم الإسلامي وما قرره الإسلام أقول لا يلزم من ذلك إقرار بالموافقة على أمور أخرى لصاحب هذا الرأي، فكل مسألة تنصب لها موازين الصحة والخطأ، وتعرض على المنهجية العلمية الدقيقة لتكون حَكَمًا لصحتها أو عدم صحتها.
 - ٤- أن التعايش الإسلامي ليس مجرد نصوص شرعية، وتوجيهات دينية، وإنما هو واقع طبقه النبي ﷺ، وطبقه الخلفاء الراشدون من بعده، فظهر التعايش مع الآخر في واقعية لم يشهد التاريخ الإنساني لها سبقا، وقد رأينا تتبع الشخصية البحثية الغربية للوقائع والأحداث على الميدان تحديداً، وعنايتها الفائقة بهذا الواقع الميداني وتركيزها عليه بشكل واضح وهو الأمر الذي تستند عليه القناعات الغربية.
 - ٥- تعدد مناحي الأدلة التي تُثبت مدى عظم التعايش الإسلامي مع الآخر والتسامح معه، حيث ظهرت في أشكال متعددة من خلال التأمل العقلي وتحليل الأحداث بتجرد من الأحكام المسبقة، وبعيدا عن التعسف في تفسير الشواهد والوقائع، وأشير في ذلك لما قام به أرنولد تحديدًا.
- والله أسأل أن يجعل هذا العمل في رضاه، وأن يُوفّقنا جميعا لصالح القول والعمل، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبيينا محمد وعلى آله وصحبه.



قائمة المراجع:

- ١- ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ، المطبعة الأزهرية بالقاهرة ١٣٠١هـ، الطبعة الأولى.
- ٢- ابن الأثير، مجد الدين، النهاية في غريب الحديث والأثر، المطبعة العثمانية بمصر ١٣١١هـ.
- ٣- ابن القيم، أحكام أهل الذمة، دار رمادي للنشر بالدمام ١٤١٨هـ، الطبعة الأولى.
- ٤- ابن بدران الدمشقي، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، المطبعة المنيرية بالقاهرة، دون الإشارة لتاريخ طبع.

- ٥- ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، دار الفضيلة بالرياض ١٤٢٤هـ. الطبعة الأولى.
- ٦- ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، دار المعرفة ببيروت دون الإشارة لتاريخ طبع.
- ٧- ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٧هـ، الطبعة الأولى.
- ٨- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، المطبعة الأدبية بمصر ١٣١٧هـ، الطبعة الأولى.
- ٩- ابن خلدون، المقدمة، دار نهضة مصر ١٤٠١هـ، الطبعة الثالثة.
- ١٠- ابن سعد، الطبقات الكبرى دار التحرير بالقاهرة ١٣٨٨هـ، الطبعة الأولى.
- ١١- ابن عاشور، مقاصد الشريعة، دار لبنان للطباعة والنشر ببيروت عام ١٤٣٢هـ، الطبعة الثانية.
- ١٢- ابن قدامة، المغني، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة، دون الإشارة لتاريخ نشر.
- ١٣- ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العمية ببيروت ١٤١٥هـ، الطبعة الأولى.
- ١٤- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٧٣هـ، الطبعة الثانية.
- ١٥- ابن ماجه، السنن، شركة الطباعة العربية السعودية ١٤٠٤هـ، الطبعة الثانية.
- ١٦- ابن منظور، لسان العرب، المطبعة الميرية بمصر ١٣٠١هـ، الطبعة الأولى.
- ١٧- ابن هشام، السيرة النبوية، مكتبة الجمهورية بمصر دون الإشارة لتاريخ نشر.
- ١٨- أبو داود، السنن، دار الكتب العلمية ببيروت ٢٠٠١م، الطبعة الأولى.
- ١٩- أبو زهرة، د. محمد، محاضرات في النصرانية، دار الفكر العربي ١٣٩٧هـ، الطبعة الخامسة.
- ٢٠- أبو زهرة، د. محمد، نظرية الحرب في الإسلام، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف المصرية عام ١٤٢٩هـ، الطبعة الثانية.
- ٢١- أبو يوسف القاضي، الخراج، دار المعرفة ببيروت عام ١٣٩٩هـ.
- ٢٢- أحمد بن حنبل، المسند، دار الحديث بالقاهرة ١٤١٦هـ، الطبعة الأولى.
- ٢٣- أنولد، توماس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن ود. عبدالمجيد عابدين، مكتبة النهضة بمصر الطبعة الثالثة عام ١٩٧٠م.
- ٢٤- الأزدي، فتوح الشام، طبع كلكتا بالهند ١٨٥٤م.
- ٢٥- انجلوا وسينوبوس، المدخل إلى الدراسات التاريخية، ترجمة عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٨١م، الطبعة الرابعة ضمن مجموع بعنوان: النقد التاريخي.
- ٢٦- البخاري، الجامع الصحيح، دار الأرقم ببيروت دون الإشارة لتاريخ طبع.
- ٢٧- بدوي، د. عبدالرحمن، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٤م، الطبعة الأولى.
- ٢٨- بدوي، د. عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ٢٠١٥، الطبعة الخامسة.
- ٢٩- برنارد لويس، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ترجمة د. ماهر عبدالقادر محمد، المكتبة الأكاديمية بالقاهرة الطبعة الأولى عام ١٩٩٦م.
- ٣٠- البكري، عبدالله، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، مطبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة ١٣٦٤هـ، الطبعة الأولى.
- ٣١- البلاذري، فتوح البلدان، مطبعة الموسوعات بالقاهرة عام ١٣١٩هـ، الطبعة الأولى.
- ٣٢- التويجري، د. عبدالعزيز، الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم - إيسيسكو، ١٤١٩هـ.

- ٣٣- جاسم، أ.د.ناصر، المستشرق توماس أرنولد والتحول في الدراسات الاستشراقية، مجلة آداب الفراهيدي، ٢٠١٣، العدد (١٧).
- ٣٤- الجراري، د.عباس، مفهوم التعايش في الإسلام، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم - إيسيسكو- ١٤١٧هـ.
- ٣٥- الحاكم، المستدرك، دار الحرمين للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى.
- ٣٦- خلاف، عبد الوهاب علم أصول الفقه، دار القلم بالكويت ١٤٠٨هـ، الطبعة الثانية.
- ٣٧- الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين ببيروت ١٩٨٩م، الطبعة الثامنة.
- ٣٨- الزمخشري، أساس البلاغة، المطبعة الوهبية بمصر ١٢٩٩هـ، الطبعة الأولى.
- ٣٩- سارتون، جورج، تاريخ العلم، دار المعارف ١٩٩١م.
- ٤٠- السخاوي، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، دار الكتب العلمية ببيروت ١٤٠٧هـ، الطبعة الأولى.
- ٤١- سنيوبوس، شارل، تاريخ الحضارة، تعريب محمد كرد علي، مطبعة الظاهر بالقاهرة دون الإشارة لتاريخ طبع.
- ٤٢- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المطبعة الحسينية بمصر، الطبعة الأولى.
- ٤٣- عساف، د.محمود عبدالمجيد، الاندماج السلمي في عالم متنوع، صحيفة دنيا الوطن الفلسطينية، ٢٠١٩/٩/٢٥م.
- ٤٤- العقيقي، المستشرقون، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٠م، الطبعة الرابعة.
- ٤٥- العمري، د.أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة ١٤١٥هـ، الطبعة السادسة.
- ٤٦- عنان، محمد عبدالله، دولة الإسلام في الأندلس "العصر الرابع"، مطبعة الخانجي بالقاهرة ١٤١٧هـ، الطبعة الرابعة.
- ٤٧- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، المطبعة الميرية بمصر ١٣٠١هـ، الطبعة الثالثة.
- ٤٨- القرافي، الفروق، دار الكتب العلمية ١٤١٨هـ، الطبعة الأولى.
- ٤٩- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦١هـ، الطبعة الأولى.
- ٥٠- القسطلاني، إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري، مطبعة بولاق بمصر ١٢٨٩هـ، الطبعة الرابعة.
- ٥١- الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م، الطبعة الثانية.
- ٥٢- لويس، برنارد لغة الإسلام السياسي، ترجمة عبدالكريم محفوظ، دار جفرا للدراسات بدمشق، ٢٠٠١م، الطبعة الأولى.
- ٥٣- لويس، برنارد، أزمة الإسلام، ترجمة حازم محسن، دار صفحات بدمشق ٢٠١٣، الطبعة الأولى.
- ٥٤- لويس، برنارد، الإسلام في التاريخ، ترجمة مدحت طه، دار آفاق بالقاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٨م.
- ٥٥- لويس، برنارد، الإيمان والقوة، ترجمة أشرف كيلاني، دار الكتاب العربي بدمشق، ٢٠١٧، الطبعة الأولى.
- ٥٦- لويس، برنارد، العرب في التاريخ، دار العلم للملايين ببيروت ١٩٥٤م، الطبعة الأولى.
- ٥٧- لويس، برنارد، الهويات المتعددة للشرق الأوسط، ترجمة حسن بحري، دار الينابيع بدمشق عام ٢٠٠٦م، الطبعة الأولى.
- ٥٨- لويس، برنارد، اليهود في ظل الإسلام، مركز الدراسات العسكرية بدمشق عام ١٩٩٥م.
- ٥٩- لويس، برنارد، أين الخطأ، دار سطور بالقاهرة ٢٠٠٣م، الطبعة الأولى.

- ٦٠- لويس، برنارد، بالاشتراك مع بنزي إليس تشيرشل، هوامش على قرن مضى، ترجمة عبدالله الأسمرى، دار الرافدين ببغداد ٢٠٢٣، الطبعة الأولى.
- ٦١- لي، د. صابرينا Dr. Sabrina Lei، مقدمة لكتاب توماس آرنولد "الدعوة إلى الإسلام" Introduction to Thomas Arnold's Preaching of Islam، مركز تواصل بايطاليا، دون الإشارة لتاريخ نشر.
- ٦٢- ماكدونالد، مقالة بعنوان: Review of Thomas Arnold, the preaching of Islam, The American Journal of Theology (Jan, 1898)
- ٦٣- مالك، الموطأ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، دون الإشارة لتاريخ طبع.
- ٦٤- محمود، د. خالد عبدالحميد، التعايش بين الأديان من منظور القرآن دراسة تأصيلية، ص ١٥٩، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ العدد الأول -المجلد السادس لعام ٢٠١٧م.
- ٦٥- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار الكتاب العربي ببيروت ٢٠٠٤م الطبعة الأولى.
- ٦٦- الميداني، عبدالرحمن حسن، ضوابط المعرفة وآداب المناظرة، دار القلم بدمشق ١٤٠٨هـ، الطبعة الثالثة.
- ٦٧- النسائي، السنن، دار البشائر الإسلامية ببيروت ١٤٠٩هـ، الطبعة الثالثة.
- ٦٨- نف، إيمري، المؤرخون وروح الشعر، ترجمة د. توفيق إسكندر، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦١م.
- ٦٩- النووي، روضة الطالبين، المكتب الإسلامي ببيروت عام ١٤٠٥هـ، الطبعة الثانية.
- ٧٠- هرشفلد، مقالة بعنوان: Review of Thomas Arnold, the preaching of Islam Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland (Jul, 1899)
- ٧١- هيلينبراند، كارول CAROLE HILLENBRAND، مقال على موقع الأكاديمية البريطانية الإلكتروني: <https://www.thebritishacademy.ac.uk/publishing/memoirs/19/lewis-bernard-1916-2018>
- ٧٢- وافي، د. علي عبدالواحد، حماية الإسلام للأنفس، عكاظ للنشر والتوزيع بجده ١٤٠٣هـ، الطبعة الأولى.

